أوصاف المكان في شعر عدي بن الرقاع

الباحثة/ هلا عطيو الله مقبل الشراري

حاصلة على الماجستير من قسم الأدب كلية اللغة العربية

جامعة أم القرى – المملكة العربية السعودية

المستخلص:

قدم عديُّ بن الرِّقاعِ العامليُّ صورة جديدة للمكان بعيدة عن الصورة النمطية التي اعتادها الناس وعرفوها، حيث جعل منه متنفساً ومؤثراً للعواطف الإنسانية الجياشة، وتأسيساً عليه فقد جاء هذا البحث ليسلط الضوء على أوصاف المكان في شعر عدي بن الرقاع، حيث يعالج الأبعاد الحسية مثل السعة والضيق، والقرب والبعد والحركة والجمود، والأبعاد المعنوية مثل الحنين والنفور والألفة والوحشة، وتتبع أهميّة البحث من خلال إلقاء الضوء على جوانب عديدة تختص بالمكان في شعر عدي بن الرقاع العاملي، فالبحث سيعطي صورة محدّدة المعالم عن أوصاف المكان في شعر عدي، ويهدف البحث إلى تحديد موقف الشاعر من المكان في شعره وارتباطه به، فهل لجأ للمكان المقدّس أم للمكان بالمفهوم الاصطلاحي؟ وتسليط الضوء على علاقات المكان المختلفة وأوصافه في القصيدة المكانية عند عدي.

الكلمات المفتاحية: عديُّ بن الرِّقاعِ العامليُّ – المكان – الوصف – المعنوية– المادية.

Descriptions of the place in the poetry of Uday bin Al-Raqqa

Researcher/ Hala Atio Allah Moqbel Al-Sharari

She holds a master's degree from the Department of Literature, College of Arabic Language - Umm Al-Qura University – Saudi Arabia

ABSTRACT:

Uday bin Al-Raqi' Al-Amili presented a new image of the place far from the stereotyped image that people are accustomed to and familiar with. He made it an outlet and an influence for the intense human emotions, and based on it, this research came to shed light on the descriptions of the place in the poetry of Uday bin Al-Raqqa, where it deals with sensory dimensions such as spaciousness and narrowness, and proximity, distance, movement and inertia, and moral dimensions such as nostalgia, aversion, familiarity and loneliness. The importance of the research stems from shedding light on many aspects related to the place in the poetry of Uday bin Al-Raqa Al-Amili. The research will give a definite picture of the descriptions of the place in Uday's poetry. The research aims at identifying the attitude of the poet towards the place in his poetry and his association with it, did he resort to the sacred place or to the place in the idiomatic sense? And highlighting the different place relationships and descriptions in Uday's spatial poem.

Keywords: Uday bin Al-Ruqa' Al-Amili - place - description - moral - materiality.

المقدمة:

إن لوصف المكان حظاً وافراً في شعر شاعر أهل الشام عدّي بن الرقاع، وهو من أكبر شعراء الشام في الشعر الأُموي، فقد وصف بيئة الشام، ووصف الأطلال وما حلّ بها بعد أن هجرها أصحابها، وبيّن صعوبة تعرفه عليها بسبب اندثار معالمها، وقد ألمّ بمعظم عناصر الطلل التقليديّة في شعره، ثم عرّج في شعره للحديث عن بيئة الحجاز، والطبيعة الحيّة والساكنة في البيئات التي تحدّث عنها، فوصف الجبال والأودية ومنازل القبائل، إضافة إلى وصفه كل ما يتعلق بالمكان مثل: وصف حيوانات الصحراء، والظعن. وبيّن مدى ارتباطها به، ممّا عزّز موقفه ورأيه من مدى تأثير المكان ومعلقاته في شحذ موهبة الشاعر، وتفتق قريحته.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أن المكان كان وما زال وثيق الصلة بالشعر والشعراء منذ العهد العربي القديم إلى يومنا هذا، فهو يشكِّلُ بالنسبة للشاعر عاملاً لتحريك شاعريته من خلال علاقة التلازم التي تسهم إلى حدّ كبيرٍ في تداعي الذكريات، ويفضي إلى إبراز منجز شعري يشكل مقياساً ويشير إلى علاقة الشاعر وتعلّقه بالمكان، وما يحمله من ذكريات وأشجان، أو مواطن الحبيب، أو الموضع الذي رحل عنه الشاعر.

وفي ضوء ما تقدّم، وبعد دراسة استقصائية متعمقة في الشعر الأموي، اخترت شعر عدي بن الرّقاع لما يمثله من ثقافة متنوعة، ورصد لمظاهر الحضارة في ذلك العصر، إضافة إلى تتبعه العميق والمفصّل لعدد من الديار في الجزيرة العربية وبلاد الشام، وكان لهذا التتبع الدقيق أثر كبير في إفادة الجغرافيين وعلماء الفلك من هذا الشعر، فيعد شعر عدي معجماً متواضعاً لأوراق الحضارة والكتابة، ومظاهر التطور في العصر الأُموي، ويعد كذلك معجماً للبلدان ومنازل القبائل، وكان عديُّ بن الرّقاعِ العامليُّ ممَّن أكثر من ذكر المواضع والبقاع في شعره حتى إنَّ ياقوت الحموي استشهد بشعره في تَحديدِ المواضع في أكثر من مائة وعشرة شواهد شعرية، وهو عددٌ كبير نسبةً لما استشهد به لشعراء آخرين(١).

وهذا بطبيعته يشكّل أهمية كبيرة دفعتني إلى أن أنكب على شعر هذا الشاعر بقراءة دقيقة، وتأمل قوي، فهو شعر يشتمل على مضامين كثيرة في السياسة والاجتماع والجغرافيا والفلك والكتابة، فعقدت العزم أن يكون بحثي في: أوصاف المكان في شعر عدي بن الرقاع، تناولت الأبعاد الحسية مثل السعة والضيق، والقرب والبعد والحركة والجمود، والأبعاد المعنوية مثل الحنين والنفور والألفة والوحشة.

(٢) ديوان عدي، (ص١٥).

وتتبع أهميّة البحث من خلال إلقاء الضوء على جوانب عديدة تختص بالمكان في شعر عدي بن الرقاع العاملي، فالبحث سيعطي صورة محدّدة المعالم عن أوصاف المكان في شعر عدي.

هذا كلُّه كان سبباً في اختيار شعر عدي وتحديداً للشعر المكاني عنده فقد أعطى شاعرنا صورة جديدة للمكان بعيدة عن الصورة النمطية التي اعتادها الناس وعرفوها إنما جعل منه متنفساً ومؤثراً للعواطف الإنسانية الجياشة. فمثل هذه النظرة، والفكرة جديرة بالبحث والدراسة والتحليل الفني الأدبي الذي يوضح أهداف البحث.

وتكمن مشكلة البحث في الكشف عن أوصاف المكان في شعر عدي سواء أكانت حسيّة أم معنويَّة.

ويهدف البحث إلى عدة أهداف منها:

١ تحديد موقف الشاعر عدي من المكان في شعره وارتباطه به، فهل لجأ للمكان المقدّس أم للمكان بالمفهوم الاصطلاحي؟

٢ تسليط الضوء على علاقات المكان المختلفة وأوصافه في القصيدة المكانية عند عدي.

ويجيب البحث عن السؤال الآتي:

ما أوصاف المكان في شعر عدي؟

منهج البحث:

اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي لتحديد مفهوم المكان ودلالته وأبعاده، وبيان الأوصاف المادية والمعنوية عند عدي بن الرقاع العاملي.

الدراسات السابقة:

من الدراسات التي لامست جانباً من شعر عَدِيّ بن الرقاع العَامِليّ:

١ عَدِيّ بن الرقاع العَامِليُّ؛ شاعراً سياسياً: دراسة موضوعية وفنية، جمال عبد المجيد حسن وادي، رسالة ماجستير، جامعة القدس، عمادة الدراسات العليا، ١٤٣٥هـ- ٢٠١٤م.

تناولت الدراسة الشاعر عَدِيّ بن الرقاع العَامِليُّ؛ شاعراً سياسياً: دراسة موضوعية وفنية، وتعد موضوعاً من موضوعات تاريخ الأدب العربي، وتكمن أهميتها في إبراز الجانب الشعري لشاعر من الشعراء الأمويين، وإبراز التوجه السياسي متمثلاً في شعر المديح أولاً.

٢ عَدِيّ بن الرقاع العَامِليُّ، حياته وشعره، تحسين محمد الصلاح، كتاب منشور، وزارة الثقافة، عمان الأردن، ١٩٩٩م.

جاء الكتاب في مقدمة وأربعة فصول، وهذه الدراسة تعتمد على الأشعار الواردة في الكتب التاريخية والأدبية وكتب البلاغة، ولم يعتمد على ديوان عدي بن الرقاع الشعري.

وهذه الدراسات السابقة لا تتعارض مع عنوان بحثي ، فالبحث يتناول أوصاف المكان في شعر عدي.

خطة البحث:

انتظم البحث في مقدمة وتمهيد، ومبحثين، وذلك على النحو الآتي:

المقدمة: تشتمل على أهمية الموضوع، وسبب اختياره وأهدافه، والدراسات السابقة.

التمهيد: نبذة عن الشاعر وترجمته، وتعريف المكان، وأهميّته في الدراسات الأدبيَّة.

المبحث الأول: الأبعاد الحسية.

المطلب الأول: السعة والضيق.

المطلب الثاني: القرب والبعد.

المطلب الثالث: الحركة والجمود.

المبحث الثاني: الأبعاد المعنوية.

المطلب الأول: بين الحنين والنفور.

المطلب الثاني: بين الألفة والوحشة.

الخاتمة: أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة، وفهرس بأهم المصادر والمراجع.

التمهيد: نبذة عن الشاعر وترجمته، وتعريف المكان، وأهميّته في الدراسات الأدبيَّة.

أ نبذة عن الشاعر وترجمته:

عدي بن زيد بن مَالك بن عدي بن الرّقاع بن عصر بن عدَّة بن شعل بن مُعَاوِيَة بن قاسط بن عميرَة ابْن زيد بن الحاف بن قضاعة [١]، يلف الغموض جوانب حياته، ولم تذكر الكتب غير شذرات منها، فتاريخ مولده غير محدد، فقد ذكر عمر رضا كحالة في معجم المؤلفين أنه(كان حياً ٩٩ ه) (٧١٨ م)[٢]، وقال الزركلي:" عدي بن الرقاع (٩٥ ه = ٧١٤ م) [٣]، ويكنى بأبي داود العاملي من بني عاملة، وهم من عرب اليمن ينتهي نسبهم إلى كهلان ثم إلى قحطان، نزحوا عن اليمن إلى الشام مع من نزح من اليمانيين قبل الإسلام.

وقد أجمعت مصادر التراجم على أن عديّ هو أبو زيد بن مالك، ينتمي إلى معاوية بن الحارث، وينسب إلى الرقاع وهو جدّ جده، وكان شاعراً مقدماً عند بني أمية، مدّاحا لهم، خاصاً بالوليد بن عبد الملك، كان معاصراً لجرير، مهاجياً له، ومنزله بدمشق، وهو من حاضرة الشعراء لا من باديتهم، وكان من أوصف الناس للمطية، وكذا ذكره صاحب الأغاني في ترجمته وقال نوح بن جرير لأبيه: من أنسب الناس؟ قال: ابن الرقاع في قوله[٤]:

لولا الحيا وأن رأسي قد عسا فيه المشيب لزرت أمّ القاسم

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحور من جآذر جاسم

وسنان أقصده النّعاس فرنّقت في عينة سنة وليس بنائم

وقد وصفه ابن ماكولا بأنه:"شاعر مشهور مجيد من شعراء الدولة الأموية"[٥]، ووصفه أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي بأنه شاعر أهل الشام، يقول: "ومنهم: عديّ بن الرِّقاع الشاعر، وهو شاعر أهلِ الشام، وهو عديّ بن زيد بن مالك بن عديّ بن الرِّقاع الشاعر، وقد كان تعرَّضَ لجريرٍ، فنهَى هشامُ ابن عبد الملك جريراً أن

---

(١) طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٣٢هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة، (٢/ ٦٨١)، ومعجم الشعراء، للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (المتوفى: ٣٨٤ هـ)، بتصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت –لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م، (ص: ٢٤٨)، والشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ هـ (٢/ ٦٠٣)، والحماسة البصرية، علي بن أبي الفرج بن الحسن، صدر الدين، أبو لحسن البصري (المتوفى: ٦٥٩هـ)، تحقيق: مختار الدين أحمد، عالم الكتب – بيروت، (٢/ ٨٤).

(٢) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (٦/ ٢٧٤).

(٣) الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦هـ)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م، (٤/ ٢٢١).

(١) شرح مقامات الحريري، أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيسي الشُّريشي (المتوفى: ٦١٩ هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦ م – ١٤٢٧ هـ (١/ ٢٧).

(٢) الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، سعد الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا (المتوفى: ٤٧٥هـ)، دار الكتب العلمية –بيروت–لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ–١٩٩٠م، (٣/ ٣٣٦)، وينظر: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأسابهم وبعض شعرهم، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (المتوفى: ٣٧٠هـ)، تحقيق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م، (ص: ١٤٦).

يهجَوه"[١]، ويذكر الذهبي أن عدياً كان آية في الشعر، غير أنه كان أبرصاً، وقد مدح الوليد بن عبد الملك، وهاجى جرير بن الخطفى، ووافق الصفدي على كلام الذهبي وزاد عليه أن تاريخ وفاته كانت في حدود العشر والمائة[٢].

والعاملي بِفَتْح الْعين الْمُهْمِلَة وَبعد الْألف مِيم مَكْسُورَة وَلَام – هَذِه النِّسْبَة إِلَى عاملة، وَالصَّحِيح أَن عاملة ولد الْحَارِث بن عدي بن الْحَارِث بن مرّة بن أدد بن زيد بن يشجب ابْن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان يجْتَمع عاملة وَكِنْدَة فِي عدي بن الْحَارِث فَإِن كِنْدَة هُوَ ثَوْر بن عفير بن عدي بن الْحَارِث بن مرّة وَنسب ولد الْحَارِث بن عدي إِلَى أمّهم عاملة بنت مَالك بن وَدِيعَة من قضاعة مِنْهُم عدي بن الرّقاع وَهُوَ عدي بن زيد بن مَالك بن عدي بن الرّقاع بن عصر بن عدَّة بن شعل بن مُعَاوِيَة بن الْحَارِث بن عدي العاملي الشَّاعِر[٣].

يقول الهمداني في صفة جزيرة العرب:"ديار عاملة وهي مجاورة للأردن وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر يليها ويطل على الأردن"[٤] ، ويقول أيضاً: "وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية إلى نحو البحر"[٥]، ويقول ابن خلدون:" وأمّا عاملة واسمه الحرث بن عدي وهم إخوة لخم وجذام وإنّما سمّي الحرث عاملة بأمّه القضاعية وهم بطن متّسع ومواطنهم ببرية الشام"[٦] ، ويقول القلقشندي في صبح الأعشى:" وهم بنو عاملة، واسمه الحارث، بن عفير، بن عديّ، بن الحارث، بن وبرة، بن أدد، بن زيد، بن يشجب، بن عريب، بن زيد، بن كهلان؛ وذكر أبو عبيد أن بني عاملة هم بنو الحارث بن مالك؛ يعني ابن الحارث بن مرّة بن أدد، وأنه كان تحته عاملة بنت مالك بن وديعة بن عفير، بن عديّ، بن الحارث، بن مرة بن أدد فعرفوا بها، وذكر صاحب حماه أنهم من ولد عاملة بن سبأ، وقد ذكر الحمداني أن بجبال عاملة من بلاد الشام منهم الجمّ الغفير"[٧] ، ونسب الناس عدياً إلى الرقاع وهو جد جده لشهرته[٨].

---

(٣) الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١هـ)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩١ م، (ص: ٣٧٥).

(٢) ينظر: سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م، (٥/ ١١٠)، والوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤هـ)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ٢٠٠٠م، (١٩/ ٣٥٠).

(٣) ينظر: اللباب في تهذيب الأنساب، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، دار صادر – بيروت، (٢/ ٣٠٦-٣٠٧)، وينظر: جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣/١٩٨٣م، (١/ ٤١٩-٤٢٠).

(٤) صفة جزيرة العرب، ابن الحائك، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الشهير بالهمداني (المتوفى: ٣٣٤هـ)، مطبعة بريل – ليدن، ١٨٨٤ م، (١٣٢/١).

(٥) المصدر نفسه، (١٢٩/١).

(٦) المصدر السابق، (١٢٩/١).

(٧) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أحمد بن علي بن أحمد الفزاري القلقشندي ثم القاهري (المتوفى: ٨٢١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، (٣٨٩/١).

(٨) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨هـ)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، (٣٠٨/٢).

ويقال إن عاملة بنت وديعة بن قضاعة أم معاوية بن الحارث وإليها ينسبون، وقد قدم عدي بن الرقاع العاملي دمشق ومدح الوليد بن عبد الملك كما أخبر بذلك ابن عساكر في تاريخ دمشق:" عدي بن الرقاع العاملي هو عدي بن زيد بن مالك بن عدي بن الرقاع بن عصر بن عذرة بن سعد بن معاوية بن قاسط بن عميرة بن زيد بن الحاف بن قضاعة ويكنى أبا داود ويقال أبو دواد، وكان أبرص وهاجي جرير بن الخطفي، واجتمعا عند الوليد بن عبد الملك فأنشده عدي قصيدته التي أولها: عرف الديار توهما فاعتادها"(١).

وقد زعم بعض النسابة أن عاملة من معد بن عدنان وليست من قحطان، ولكن عدياً نفسه يتولى الرد عليهم بقوله(٢):

قحطان والدنا الذي ندعى له وأبو خزيمة خندق بن نزار

وفي لغة عدي أيضاً ما يصحح دعواه قال:

فإنك والشعر ذو تزجي قوافيه كمبتغي الصيد في عريسة الأسد

يريد (الشعر الذي تزجي قوافيه) وذو معنى الذي في لغة طيي، وطيي من قحطان.

وكما ذكرنا فإن تاريخ ميلاد شاعرنا غير محدد بدقة، ولم يذكر هذا الأمر غير الزركلي في الأعلام، وعمر رضا كحالة في معجم المؤلفين، ولكن يغلب على الظن أن يكون مولده حوالي العقد الرابع من القرن الأول الهجري الأول بين سنة ثلاثين وأربعين للهجرة؛ وذلك لما روي عنه من شعر نظمه في خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ – ٦٤ ه)، ويزبد بويع بالخلافة سنة ستين وتوفي سنة أربع وستين، فلا نكون مخطئين إذا قدرنا أن عدياً كان وقتئذ شاباً(٣)، وهذه الأبيات كانت في مدح ناتل الجذامي، وهجاء روح بن زنباع(٤) :

على ذي منارٍ تعرف العين متنه كما تعرف الأضياف دار المقطع

(١) تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١هـ)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ هـ – ١٩٩٥ م، (٤٠/ ١٢٧).

(٢) ينظر: الإنباه على قبائل الرواة، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، (٩٧/١)، والممتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشلي القيرواني، تحقيق: الدكتور محمد زغلول سلام، أستاذ اللغة العربية وأدابها – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، منشأة المعارف، الإسكندرية – جمهورية مصر العربية، (١٦٨/١)، ومجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧هـ)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م، (١٩٤/١)، وتاريخ دمشق، ابن عساكر، (٣٧٧/٦١)، وطبقات فحول الشعراء، (٧٠٢/٢).

(١) ينظر: ديوان عدي بن الرقاع العاملي، أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب الشيباني، تحقيق: د/ نوري القيسي، ود/ حاتم الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧ م، ص٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥٨.

وقوله:

أنّـــا رضـــينا وانْ غابـــت جماعتنـــا مـــا قـــال ســـيدنا روح بـــن زنبـــاع

يرعـــى ثمـــانين ألفـــاً كـــان مـــثلهمُ ممـــا يخـــالف أحيانـــاً علـــى الراعـــي

أما عن وفاته فإن الغموض يكتنف المرحلة الأخيرة من حياة عدي بن الرقاع، فلم يحدد القدماء سنة وفاته إلا ابن شاكر الكتبي، فإنه ذكر أن عدياً توفي سنة خمس وتسعين للهجرة أو قبلها [١]، ولم يذكر الكتبي المصدر الذي استقى منه هذا التاريخ، وقد تبعه في ذلك بعض الدارسين المحدثين ومنهم الزركلي الذي قال إنه توفي سنة خمس وتسعين للهجرة [٢]، وأخذ عن الزركلي الدكتور ياسين الأيوبي[٣]، وعبد العزيز بن محمد الزير[٤] دون تثبت من صحة ذلك، لكن عمر رضا كحالة يذكر أن عديا كان حياً سنة تسع وتسعين للهجرة [٥]، وإلى ذلك أشار الأستاذ خليل مردم فقال: لا يبعد أن يكون عدي قد توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز [٦].

وقول الأستاذ مردم أقرب إلى الصواب، لأن عدياً أدرك خلافة سليمان بن عبد الملك، ذكر ذلك ابن عبدربه في العقد الفريد، يقول:"لما ولي سليمان بن عبد الملك كتب إلى عامله بالأردن: اجمع يدي عديّ بن الرقاع إلى عنقه، وابعث به إليّ على قتب بلا وطاء، ووكّل به من ينخس به ففعل ذلك.

فلما انتهى إلى سليمان بن عبد الملك ألقى بين يده إلقاء لا روح فيه، فتركه حتى ارتدّ إليه روحه، ثم قال له: أنت أهل لما نزل بك"[٧]، وذكر ذلك أيضاً ابن عساكر في تاريخ دمشق [٨]، واستناداً إلى ذلك يكون عدي قد عاصر سليمان بن عبدالملك، وفي شعره ما يرجح أنه أدرك خلافة عمر بن عبدالعزيز الذي تولى الخلافة سنة تسع وتسعين للهجرة بعد وفاة سليمان بن عبدالملك، فقد مدح عمر بن العزيز بعد توليه الخلافة، ونقل ابن منظور أبياتا من مديحه له [٩]، وتوفي عمر بن عبدالعزيز سنة إحدى ومائة للهجرة، ولا يبعد أن يكون عدي قد توفي في هذه السنة، لأن أخباره تنقطع بعد وفاة عمر ابن عبدالعزيز.

---

(١) نقلاً عن: عدي بن الرقاع العاملي – حياته وشعره، تحسين محمد الصلاح، وزارة الثقافة المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، ط١، ١٩٩٩م، (ص:٤٣).

(٢) الأعلام، الزركلي، (٢٢١/٤).

(٣) معجم شعراء لسان العرب، ياسين الأيوبي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠ ص ٢٧٩.

(٤) شعراء الدعوة الإسلامية، عبد العزيز محمد الزير، ومحمد عبد الله الأطرم، كلية اللغة العربية بالرياض، ص ١١٥.

(٥) معجم المؤلفين، ص ٢٧٤.

(٦) شعراء شاميون، خليل مردم بك، تحقيق: عدنان مردم، دار صادر بيروت، ص ١٨.

(٧) العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، (٥١/٢).

(٨) تاريخ دمشق، ابن عساكر، (١٢٩/٤٠).

(٩) لسان العرب، (١٤٨/٦).

ب مكانته الشعرية:

لقد تبوأ عدي بن الرقاع العاملي مكانة كبيرة عند بني أمية وتقدم عند الخلفاء حتى صار شاعر بلاطهم ونال لديهم مكانة حتى كانوا يدافعون عنه صراحة كما في خبر الوليد مع جرير سابق الذكر، هذه المكانة دون شك تثير المنافسة والحسد لدى كثيرين ممن يتمنون أن ينالوا هذه المنزلة، لذلك حسده بعضهم وحاولوا التقليل من شأنه وطعن بعضهم في نسبه وهاجاه وناوشه أكثر من شاعر منهم جرير والراعي النميري وشبيل بن الحنبار الكلبي.

أما جرير فقد كانت بينه وبين ابن الرقاع منافسة، وقد حاول إثارته والتقليل من شأنه في أكثر من مناسبة[١]، وقد مر بنا خبره معه في مجلس الوليد أو عبد الملك وخبره حين تحرش به هو والفرزدق وأرادا أن يقطعاه فلما سمعا شعره يئسا منه، جاء في أمالي المرتضي:"ذكرت الرواة أنّ الفرزدق قال: كنت فى المجلس وجرير إلى جانبى، فلما ابتدأ عدىّ في قصيدته قلت لجرير مسرّا إليه: هلمّ نسخر من هذا الشامىّ، فلما ذقنا كلامه يئسنا منه"[٢]، وكان الوليد قد هدد جريراً ومنعه من هجاء ابن الرقاع، ومع ذلك لم يفلت عدي من لسان جرير، فقد جاء في كتاب النقائض قول جرير يهجو الفرزدق وجميع الشعراء:

ذاق الفرزدق والأخيطل حرها والبارقي وذاق منها البلتع

البارقي يعني سراقة البارقي، والبلتع يعني المستنير بن أبي بلتعة العنبري.

ولقد قسمت لذي الرقاع هدية وتركت فيه وهية لا ترقع

وقوله: لذي الرقاع: هو عدي بن الرقاع. وقوله: وهية: فعيلة من الوهي وهو الضعف[٣].

وفي الخبر دليل على شاعرية ابن الرقاع، ولولا أن لشعره وزناً ما تعرض له جرير وأفرده ببيت، ومع كل ذلك عد جرير عدياً من أنسب الشعراء؛ فقد روي أن نوح بن جرير قال لأبيه: "يا أبت، من أنسب الشعراء؟ قال له: أتعني ما قلت؟ قال: إني لست أريد من شعرك إنما أريد من شعر غيرك. قال: ابن الرقاع في قوله:

لولا الحياء وأن رأسي قد عثا فيه المشيب لزرت أم القاسم

(١) انظر مثلا: الأغاني، ٢٢٨/٩ وما بعدها، أمالي المرتضى، الجمان في تشبيهات القرآن: لابن ناقيا، عبد الله بن الحسين، تحقيق محمود الشيباني، الرياض، ١٩٨٧ م، ص ٢٣٤.

(١) أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (٣٥٥ – ٤٣٦ هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، الطبعة الأولى، ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٤ م، (١١/٢).

(٢) نقائض جرير والأخطل، تأليف أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، دار المشرق، بيروت، ١٩٢٢م،٦٦-٦٧.

وكأنهـــا وســـط النـــساء أعارهـــا عينيـــه أخـــور مـــن جـــآذر جاســـم

وســـنان أقـــصده النعـــاس فرنقـــت فـــي عينـــه ســـنة ولـــيس بنـــائم

ثم قال لي: "ما كان يبالي إن لم يقل بعدها شيئا" [1].

أما شبيل بن الحنبار الكلبي فقد ذكر الخالديان أنـه كـان عنـد أميـر المـؤمنين عبد الملك بن مروان "فدخل عليهم ابن الرقاع فقال شبيل: من هذا يـا أميـر المـؤمنين؟ قال: هذا ابن الرقاع، قال: الرقاع التي تكون في السقاء؟ قال لا، هذا العاملي. قال: الـذي يقـول الله عـز وجـل: عاملـة ناصـبة تـصلى نـاراً حاميـة، فـضحك عبد الملك ثم قال لابن الرقاع: أنشدني فأنشده شعراً شبه نفسه فيه بالحية[2]:

أســـلٌ ســـماويٌ كـــأن لـــسانه أســـفَّ ســـواديًّا مـــن الكحـــل أســـحما

إذا خـــاف خوفـــا أضـــمرته بـــلاده كمـــا يـــضمر الـــصدر الحـــديث المكتَّمـــا

فاعترض عليه شبيل فقطع شعره وقال:

لك الويـــل هـــلا كنـــت شـــبلا لأجفـــر تـــشبهت أو ليثـــا بخفـــان ضـــيغما

فـــشبهت مـــا لا يرقـــع الـــدهر بطنـــه علـــى الأرض إلا مـــا حبـــا وتقحمـــا

فقال ابن الرقاع:

وفي الناس أشـــباه كثيـــرا ولـــم أكـــن لأشـــبه شـــرا مـــن شـــبيل وألأمـــا

تشبهت ما لو عض شـــبل بـــن حنبـــر لظـــل شـــبيل يـــسلخ المـــاء والـــدما

فانقطع شبيل وغلبه ابن الرقاع [3]، يريدون قطعه أمام الخليفة، ولكن الرجـل كـان أكبر مما يرجون.

أما مؤاخذته بسبب بعض ما جاء في شعره فمنه ما كان من كثير عزة الذي كان له مع عدي ثأر أدبي لما كان يبلغه من عدي وأنه يطعن على شعره ويقـول: هـذا شـعر حجازي مقرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك، لذلك كان لعدي بالمرصاد حتى كان مرة عند الوليد بن عبد الملك وعدي ينشده قصيدته التي أولها:

عرف الديار توهما فاعتادها

حتى أتى إلى قوله:

---

(١) الأغاني، ٢٢٨/٩.

(٢) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، للخالديين، تحقيق السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٦٥م، (٩١/٢).

(٢) الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، (٩٣/٢).

وقـــصيدة قـــد بـــت أجمـــع بينهـــا حتـــــى أقـــــوم ميلهـــــا وســـــنادها

فقال له كثير: لو كنت مطبوعاً أو فصيحاً أو عالماً لم تأت فيهـا بميـل ولا سـناد فتحتاج إلى أن تقومها، ثم أنشد:

نظـــر المثقـــف فـــي كعـــوب قناتـــه حتـــــى يقـــــيم ثقافـــــة منآدهـــــا

فقال له كثير: لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليهـا عـادت عوجـاء، ولأن تكـون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها.

ثم أنشد:

وبقيـــت حتـــى مـــا أســـائل واحـــدا عـــن علـــم واحـــدة لكـــي أزدادهـــا

فقال كثير: كذبت ورب البيت الحرام! فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك عـن صـغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك، وما كنت قط أحمق منك الآن حيث تظن هذا بنفـسك، فضحك الوليد ومن حضر، وقطع بعدي بن الرقاع حتى ما نطق[1].

ومن المفيد أن أشير إلى أنه ما كان لعدي أن ينقطع وما أظنه ينقطع لمثل هذا؛ لأن كثيراً لم يكن محقاً فيه؛ فكثير نفسه من رواد مدرسة التنقيح وهو آخر سلسلة عبيد الشعر المعروفين بتنقيحه من أهل الروية، فقد أخذ الشعر عن جميل بن معمر وكان راوية لـه، وكان جميل راوية الحطيئة، وكان الحطيئة راوية زهير، وكان زهير راويـة لأوس بـن حجر [2] فما كان لعدي أن ينقطع بسبب تثقيف شعره والعناية به أمام أحد أعلام مدرسـة الصنعة والتثقيف، والتنقيح من بعد ليس عيباً في الشعر ولا قادحاً فيه.

أما تكذيب كثير له في بيته الأخير فهو وإن كان ضرباً من المبالغة فـي الاعتـزاز بالنفس والاعتداد بما معه من العلم بالشعر وفنونه، فإن عدياً لم يكن بدعة في ذلـك فقـد سبقه إلى ذلك أناس وتبعهم فيه آخرون، فممن سبق إلى ذلك الأعور الشني [3] في قوله:

وقـــد أصـــبحت لا أحتـــاج فيمـــا بلـــوت مـــن الأمـــور إلـــى ســـؤال

وللمتنبي في ذلك شأن [4].

(١) الأغاني (٢٣٥/٩).

(١) الشعر والشعراء، (٣١٠/١).

(٢) الأعور الشني، هو بشر بن منقذ عاش أيام علي (رضي الله عنه)، انظر ترجمته والبيت في الشعر والشعراء، (٦٢٤/٢-٦٢٥).

(٣) الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ص ٣٣ .

ثانياً: تعريف المكان وأهميته في الدراسات الأدبية:

شغل مصطلح المكان اهتمام الكثير من النقاد والمفكرين والفلاسفة عبر التاريخ، ذلك لأنه يحيل إلى أهمية كبرى تقضي بضرورة تحديد مفهومه اللغوي والاصطلاحي(١)، ويعد المكان أيضاً المكان الخاص الذي يعيش فيه الإنسان دون الخضوع فيه لأية سلطة، كالبيت مثلا حيث" يمارس فيه الفرد حياته اليومية"(٢)، ولذا عبر الباحثون عن المكان بأشكال متعددة ومعانٍ عديدة لإبراز أهميته في العمل الإبداعي والكتابات الأدبية(٣).

١ المكان في اللغة:

المكان – بوصفه أداة أو علامة لغوية مهمة – يكاد يكون واحداً في المضمون عند علماء اللغة، يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي في معجم (العين):"الكوْن: الحدث، ويكون مصدراً من كان يكون، و(الكائنة): الأمر الحادث، والمكان اشتقاق من كان يكون، فلما كثرت صارت الميم كأنها أصلية، فجُمع على أمكنة"(٤)، وفي لسان العرب لابن منظور:"والمكان الموضع، والجمع أمكنة كقذال وأقذلة، وأماكن جمع الجمع، قال ثعلب: يبطل أن يكون مكان فعالاً؛ لأن العرب تقول: كن مكانك، وقم مكانك، واقعد مقعدك؛ فقد دل هذا على أنه مصدر من كان أو موضع منه؛ قال: وإنما جمع أمكنة فعاملوا الميم الزائدة معاملة الأصلية لأن العرب تشبه الحرف بالحرف" (٥).

وفي تاج العروس للزبيدي: "(والمكان: الموضع) الحاوي للشيء، وعند بعض المتكلمين أنه عرض، وهو اجتماع جسمين حاو ومحوي، وذلك ككون الجسم الحاوي محيطاً بالمحوي، فالمكان عندهم هو المناسبة بين هذين الجسمين، وليس هذا بالمعروف في اللغة؛ قاله الراغب، والجمع: (أمكنة)، كقذال وأقذلة؛ (وأماكن)، جمع الجمع" (٦).

وفرق ابن دريد بين معنى المكان الحقيقي، والمكان المجازي في قوله: "المكان: مكان الإنسان وغيره، والجمع أمكنة. ولفلان مكانة عند السلطان، أي: منزلة، ورجل مكين من قوم مكناء عند السلطان" (٧).

---

(١) القارئ والنص والعلامة، سيزا قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٢م، ص ٤٥.

(٢) مشكلة المكان، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، عيون المقالات الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٨٨م، ص ٦٢، وانظر: الشعرية، تودروف، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٩٠ م، ص ٢٦.

(٣) الفضاء الروائي، جيرار جنيت وآخرون، ترجمة: عبد الرحيم جزل، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٢م، ص ١٣٧. وانظر: الشعرية، تودروف، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٩٠ م، ص ٢٦.

(٤) معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت، مادة (ك. و.ن)، (ص٧٣٥).

(٥) ينظر: لسان العرب، مادة (م ك ن)، (٤١٤/١٣).

(٦) ينظر: تاج العروس، الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني، المعروف بالمرتضى، تحقيق: عبد الستار فراج وآخرين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٥م، مادة (م ك ن)، (١٨٩/٣٦-١٩٠).

(٧) جمهرة اللغة، ابن دريد الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م، مادة (ك م ن)، (٩٨٣/٢).

يتضح – من هذه التعريفات اللغوية – أن المكان هو الموضع الذي يولد فيه الإنسان، وهو الموضع الذي يستقر فيه، وهو الموضع الذي يعيش ويتطور فيه، إذ ينتقل من حال إلى آخر، وما ينطبق على تطور حياة الإنسان الفرد، ينطبق على حياة الجماعات والأمم المختلفة (١). ومن ثم فالإنسان يأخذ معناه من المكان، والمكان يأخذ معناه من الإنسان، والمكان أسبق من الإنسان (٢).

وفي القرآن الكريم يرتبط فعل الكون بالخلق والوجود، ونجد هذا واضحا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]، وقد وردت كلمة (مكان) في القرآن الكريم بسياقات عديدة منها مكان البيت، ومكان قريب فقد جاء في قوله: ﴿وَٱستَمِع يَومَ يُنَادِ ٱلمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ٤١ ﴾ [ق: ٤١].

وقد جاءت هذه اللفظة مجازاً بمعنى المنزلة (٣) في عدة آيات من القرآن الكريم قوله تعالى ﴿وَرَفَعنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: ٥٧]، ويبقى تحديد مصطلح المكان لغويًا متبايناً في الكثير من التفسيرات التي قد يتوافق بعضها مع الآخر ويتناقض البعض الآخر مع غيره وهذا لاتساع دلالته اللغوية وعدم محدوديته.

٢ المكان في الاصطلاح:

يعد المكان أمراً مهماً في الأدب العربي القديم – شعره ونثره – منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، فهو بؤرة متأصلة في جسد التشكيل الفني للعمل الإبداعي؛ "مما يجعله أكثر العناصر صلة بالنفس؛ لذلك لا يظهر المكان في الشعر شيئاً معزولاً مفرداً أو تكويناً مجرداً، أو بناءً، وإنما يظهر بكونه ممارسة ونشاطاً إنسانياً" (٤).

ومن ثم فالعمل الأدبي تقل أهميته، وتتضاءل جودته، حين يفقد صلته بالمكان، فيخسر أصالته وخصوصيته (٥)، وليس معنى ذلك أن صلة الشاعر بالمكان صلة هينة، بل معقدة ف "علاقة الإنسان بالمكان علاقة تأثير متبادل، فالإنسان يمارس فعاليته في المكان، بل ويغير من طبيعته في كثير من الأحيان، ثم يعود المكان فيمارس تأثيره على الإنسان في دورة لا تنتهي من التأثير المتبادل" (٦).

ولذا فقد حظي المكان بفضائه باهتمام الدارسين والباحثين والمتصدرين لدراسة الأدب العربي وتحليله والكشف عن جمالياته، لكن أغلب هذه الدراسات انطوى اهتمامها

(١) الانتماء في الشعر الجاهلي، فاروق أحمد سليم، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، ١٩٩٨م، ص ١٩٧.

(٢) الإنسان والمكان، ليث كريم حمد، مجلة ديالى، العراق، ٢٠٠٩م، العدد ٤٠.

(٣) ينظر: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة، ط٢، ط ١٩٨٩ م، ص ٥٤٤.

(٤) إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٥م، ص ٢٩٣.

(٥) ينظر: جماليات المكان في شعر ذي الرمة، فادى رضا العويشي، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة البعث، سوريا، ٢٠١٠م، ص ٣.

(٦) بناء «فضاء المكان» في القصة العربية القصيرة، محمد السيد إسماعيل، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢م، ص ٨٧.

على الأدب العربي الحديث والمعاصر، وقل من تصدر لدراسة أدبنا العربي القديم رغم ثرائه.

وقد تعددت الرؤى حول كينونة المكان وفلسفته في المنظور الأدبي، النابعة من اتساع دلالة الأمكنة، ولذا ينظر له باعتباره "رؤيا خاصة للكون عبر فلسفة العصر الذي نحياه، وعلى هذا فالمكان من أكثر الأنساق الفكرية تعقيداً في بناء الشعر" (١).

ولكلمة(مكان) كثير من الدلالات، فقد أورد الجرجاني في التعريفات وجهة نظر الحكماء حول تعريف المكان، ثم أردف إلى أنواع المكان مقسماً له إلى نوعين هما المكان المبهم والمكان المعين، يقول الجرجاني:" المكان: عند الحكماء هو السطح الباطن من الجسم الحاوي المماس للسطح الظاهر من الجسم المحوي، وعند المتكلمين: هو الفراغ المتوهم الذي يشغله الجسم وتنفذ فيه أبعاده، وينقسم إلى: المكان المبهم: وهو عبارة عن مكان له اسم نسميه به، بسبب أمر داخل في مسماه، كالخلف، فإن تسمية ذلك المكان بالخلف إنما هو بسبب كون الخلف في جهة، وهو غير داخل في مسماه، والمكان المعين: عبارة عن مكان له اسم سمي به، بسبب أمر داخل في مسماه، كالدار؛ فإن تسميته بها بسبب الحائط والسقف وغيرهما، وكلها داخلة في مسماه"(٢).

أما في الدراسات الحديثة فيعرفه يوري لوتمان (Youri Lotman) بأنه "مجموعة من الأشياء المتجانسة من الظواهر أو الحالات أو الوظائف أو الأشكال المتغيرة ... تقوم بينها علاقات شبيهة بالعلاقات المكانية المألوفة والعادية مثل الاتصال والمسافة" (٣) فقد نقل لوتمان المكان من المستوى الفلسفي إلى المستوى السيسيولوجي، وأكد على أهميته تحت نظام العلاقات القائمة بين الأشياء التي تخضع بتغيرات مختلفة في الأشكال و"إن نماذج العالم الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية العامة التي ساعدت الإنسان على مراحل تاريخية على إضفاء معنى الحياة التي تحيط به نقول إن هذه النماذج تنطوي دوماً تحت سمات مكانية" (٤)، فمرجعية الإنسان الأولى تعلقت بالمكان ليبني منظومته، كما أن المكان هو الركيزة الأساسية التي يتعامل بها الإنسان مع الوسط الذي يعايشه، وينتمي إليه.

فالمكان في نظر يوري لوتمان حقيقة معيشية تؤثر في البشر بنفس القدر الذي يؤثرون فيه فلا يوجد مكان فارغ أو سلبي، ويحمل المكان قيماً تنتج من التنظيم

(١) الزمكانية وبنية الشعر المعاصر – أحمد عبد المعطي حجازي أنموذجا، حنان محمد موسى، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ٢٠٠٦م، ص ٣٥.

(٢) كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م، (ص٩٤)، (ص٢٢٧).

(٣) مشكلة المكان الفن (المكان والدلالة)، يوري لتمان، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة ألف، العدد ٦، ١٩٨٦ م، ص ٨٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٨٩.

المعماري كما نتج من التنظيم الاجتماعي فيفرض كل مكان سلوكاً خاصاً على الناس الذين يلجأون إليه، والطريقة التي يدرك بها المكان تضفي عليه دلالات خاصة" [١] فكل مكان حسب لوتمان يفرض طقوسه وخصوصيته على الفرد الذي يوجد فيه فهو ملزم وخاضع لتلك القواعد التي تحكمه ونفرض كينونتها على الإنسان، فتختلف دلالة المكان من دلالة جغرافية إلى دلالة فلسفية وحتى هندسية حسب تموضع الأمكنة.

هذا، وقد اهتم غاستون باشلار (Bachlard Gaston) بمفهوم المكان وعلاقته بالإنسان، حيث أنجز مجموعة من الدراسات من أهمها كتاب "شعرية المكان" وترجمه غالب هلسا تحت "جماليات المكان" وقد تناول فيه باشلار الجانب الجمالي للأمكنة كما أوضح هلسا "أن النقطة الأساسية التي ينطلق منها المؤلف هي أن البيت القديم بيت الطفولة هو مكان الألفة ومركز تكيف الخيال، وعندما نبتعد عنه نظل دائماً نستعيد ذكراه ونسقط على الكثير من مظاهر الحياة المادية، ذلك الإحساس بالجمالية والأمن اللذين كانا يوفرهما لنا البيت القديم"[٢].

والمكان – بصورته المثلي أو بوحشته – يعد علامة بارزة على ارتباط الشاعر به والأثر النفسي الذي لحقه منه، فيتمخض هذا الأثر في تجربة الشاعر الإبداعية، مما يكشف من خلال ذلك جماليات هذا المكان وفضائه، فالإنسان – بلا شك – هو ابن بيئته تؤثر فيه ويتأثر بها، ومن ثم وجدنا هذا التأثر وهذا الارتباط بالمكان جزءاً لا يتجزأ من عاطفة الشاعر؛ لأن المكان يسهم في التعبير عن معاناة الشاعر العاطفية التي تحتويها تجربته الشعرية.

ووجود الإنسان وتموقعه في المكان يشكل "مكان لعبوره أيضاً، وهو مكان للوعي، يختزل عبر الوعي بالأمكنة كلها ابتداءً من الأمكنة الصغرى والكبرى المألوفة وانتهاءً بالمكان المطلق (الكون) [٣]، لأن الإنسان يرتبط بالمكان، ووجوده في المكان يحتوي المكان بوعيه وإدراكه ، فقد بات واضحاً أن المكان يرتبط جذرياً بفعل الكينونة للعيش والوجود، وفهم الحقائق وصياغة المشروع الإنساني [٤]، والإنسان "يحول معطيات الواقع المحسوس، وينظمها لا من خلال توظيفها المادي ... بل من خلال إعطائها دلالة وقيمة تكتسب عناصر العالم المحسوس ودلالتها" [٥].

(١) جماليات المكان، ص ٨٣.

(٢) جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٤ م، ص ٣٠.

(٣) قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، صلاح صلاح، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٧ م، ص ١٥.

(٤) ينظر: إشكالية المكان في النص الأدبي، ص ٦٤.

(٥) جماليات المكان، مجموعة مؤلفين، ترجمة: سيزا قاسم وآخرون، الدار البيضاء ودار قرطبة، لبنان، ط١، ١٩٨٨ م، ص ٦٤.

وتظل خصوصية المكان القديم بيت الطفولة، ذات تأثير كبير على ذاكرة الإنسان مهما ابتعد عنه جسدياً إلا أنه يظل قابعاً ومحفوراً في ذاكرته، كما يرى باشلار أن المكان الذي ينجذب نحوه الخيال، لا يمكن أن يبقى مكاناً لا مبالياً ذا أبعاد هندسية وحسب، فهو مكان قد عاش فيه بشر ليس بشكل موضوعي فقط، بل بكل ما في الخيال من تحيز [١]، فهنا يؤكد باشلار أنه لا يوجد موضوع دون ذات، بل الخيال بالنسبة للمكان يلغي تلك الموضوعية، فهو يجعل للذات موضوعها الخاص المستقل عن الواقع لأن "الإحساس بالمتناهي في الكبر يوجد داخلنا ولا يرتبط بالضرورة بشيء" [٢]، وهنا يظهر الوعي الإنساني في تحويل الأمكنة سواء ربطه بالأشياء وبالخيال أو بالإحساس، وقد ساهم باشلار في بناء تصور جمالي للمكان.

(١) ينظر: المرجع نفسه، ص ٣١.
(٢) المرجع نفسه، ص ٣٣.

المبحث الأول: الأبعاد الحسية.

المطلب الأول: السعة والضيق.

المطلب الثاني: القرب والبعد.

المطلب الثالث: الحركة والجمود.

المطلب الأول: السعة والضيق:

فطن الشاعر منذ القدم إلى أهمية المكان في البنية الفنية للنص الشعري، فانفتح الشاعر بخياله على أمكنة قريبة وبعيدة، ولد فيها أو عاش فيها، أو زارها أو سمع عنها، مع وصفها وصفاً دقيقاً في كثير من الأحيان ليشارك وجدان المتلقي في إحساسه تجاه هذه الأمكنة، فأصبح المكان لمن أبدع في وصفه لا لمن يملكه أو يسكنه فقط.

إن الشاعر عدي بن الرقاع من الشعراء الذي يمكن تصنيفهم بشعراء البيئة إن صحت التسمية ؛ لأنه دائم الحرص على ذكر الأمكنة المتعلقة بالحدث ووصفها وصفاً دقيقاً يكشف عن الكثير من المعاني ، ويساعد في فهمها، حيث يقول [1]:

صَدَّ عَنهُ السَيلَ مَجرى تَلعَةٍ[2] خُدُدٌ باقٍ كَأُخدودِ الكِرابِ [3]

فقد شبه الشاعر الأخدود الذي أبقاه السيل بالمجرى الذي يكون في كربة النخل وسعفه، والأُخْدودُ: شَقٌّ في الأرض مستطيل، وهنا تظهر الملامح الهندسية للمكان من خلال وصف الشاعر لمراحل مرور الماء بداية من التلعة أعلى الأرض إلى بطون الأودية واستقرارها في الأخدود، فتتعانق المياه مع الكراب التي تشي بجمال الطبيعة وحيويتها وصفائها وتستقر في الأخدود لتدل على ديمومة الحياة في هذا المكان.

إن الأمكنة المفتوحة من وحي الطبيعة جاءت صورها في شعر عدي بن الرقاع كثيرة ومتناثرة، فقد استعان بها في غير موضع؛ لما تحمله في طياتها من راحة نفسية وشعور بالهدوء، كما أن فكرة التعلق المكاني عند الشعراء من الأشياء القديمة فدائماً ما يربط الشاعر بين تجربته الشعرية وملامح المكان، وها هو ذا الشاعر عدي في وصفه للصحراء واتساعها يلجأ إلى ربط المكان بمن يمر فيه أو يعيش فيه، يقول [4]:

أَلقَت عَلى مَتنِ الطَريقِ جَنينَها بَتَنوفَةٍ قَفرٍ يُحارُ قَطاها

---

(١) الديوان، ٤٢.

(٢) التلعة: هي المسيل من المكان: من أعلى الأرض إلى بطون الأودية، ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م، (١١٩٢/٣)، مادة (ت ل ع).

(٣) الكِرَبُ: أُصُولُ السَّعَفِ الغِلاظُ الَّتِي تَيْبَسُ فَتَصِيرُ مِثْلَ الكَتِفِ، ينظر لسان العرب (٧١٣/١).

(٤) الديوان، ١٠٣.

فقد صور لنا الشاعر في هذا البيت شدة اتساع الصحراء عن طريق استخدام صورة حركية للقطاة، والتي تُعد من أهدى أنواع الطير التي تسكن البراري، فعلى الرغم من معرفتها إلا أنها تحار وتضل الطريق في هذه الفلاة الواسعة المقفرة، فلا يوجد بها علم يُهتدى به، فإن الكائنات التي تعيش فيها تحار في معالمها ومخارمها، مما يدل على اتساعها وصعوبة الاهتداء فيها حتى لمن يسكنها.

وفي موضع آخر يصف فيه اتساع هذه الفلاة عن طريق ربط المكان بمن يمر فيه، يقول [1]:

وَداوِيَـــةٍ يُحـــارُ الرَكـــبُ فيهـــا كَـــأَنَّ عَلـــى مَخارِمِهـــا جِـــلالا

فقد استطاع الشاعر من خلال استخدامه للتشبيه أن يصف لنا شدة اتساع هذا الفضاء الذي يحار فيه الركب، فيضل طريقه ويتوه في غياهب هذه الصحراء المترامية الأطراف، وقد استثمر الشاعر هذا الفضاء في نقل الصورة الذهنية إلى المتلقي والتي تدل على شدة اتساع المكان حتى إن الجبال المحيطة بالمكان كساها الجلال وغمرها الآل فأصبحت بلا حدود، فالكائنات التي تسكنها ضلت، وحار الركب فيها فهي مكان بلا حدود ولا معالم، شديد الاتساع، ويتمثل اتساع المكان / الصحراء أولاً في ذاته، فهو رمز للاتساع والخلاء، وفيمن يمر من خلاله فإنه مكان يضل فيه الركب إذا فقدوا الدليل والهادي.

وفي موضع آخر يرسم لنا صورة حسية للمكان، ويصفه وصفاً دقيقاً يبين فيه المساحة والحدود، يقول [2]:

كَـــأَنَّ أَفـــاحيصَ القَطـــا[3] حَيـــثُ عاجَهـــا مُعَـــرَّسُ مَثـــوىً مِـــن كَـــرى اللَيـــلِ نُـــيَّمِ

ففي هذه اللوحة المكانية الرائعة شبه الشاعر أثار البعير على الأرض إذا بركت بأفاحيص الطير التي تجهزها لتضع فيها بيضها، في تحديدٍ لمعالم هذا الموضع تحديداً دقيقاً، حيث إن موضع البيض يكون عبارة عن منخفض يشبه الدائرة وما حوله مرتفع عنه، وكذلك هذه الآثار التي ظهرت على الأرض نتيجة لنزول البعير وإقامتها في هذا المكان تكون على هذه الحالة من الانخفاض، مما يدل على قوة ارتباط التجربة الشعرية بالمكان وتشكيل العلاقة بين المبدع والمكان بصورة تكاملية رائعة.

(١) المصدر نفسه، ١١١.

(٢) المصدر السابق، ١٣٢.

(٣) الأُفْحوصُ: مَجْثِمُ القَطاةِ، موضع البيض، وسمي أفحوص؛ لأنَّها تَفْحَصُهُ، ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (١٠٤٨/٣) .

وعندما أراد أن يمدح جيش الوليد بن عبد الملك ويصفه بالكثرة استعان بالمكان، حيث يقول (١):

بِجَيشٍ مَتى هَبَطوا غائِطاً وَإِن كانَ ذا كَلَأٍ يَجدِبِ

فشبه الشاعر هذا الجيش بالكثافة العددية اللامحدودة ، فلو أنهم نزلوا في غائط وهو المكان الواسع الكبير؛ لترعى فيه خيلهم وإبلهم ما فيه من الكلأ والعشب فلا تبقى منه شيئاً حتى يتحول هذا المكان من مكان خصب إلى مكان مجدب قفر، مما يدل على كثرة عدد هذا الجيش وكثافته، واتساع المكان الذي احتوى هذا الجيش كثير العدة والعتاد، وهنا استطاع الشاعر أن يوظف المكان الواسع البسيط في إبراز المعنى المراد، فلم يكن اتساع المكان مجرد معنى زائداً، إنما جاء ذكره بهدف تحديد المساحة الهندسية للموقع، والكم العدد للجيش، وما فيه من دلالات نفسية وفنية.

المطلب الثاني: القرب والبعد:

تضمن شعر عدي بن الرقاع الكثير من عناصر الطبيعة والتي ضمها إلى صوره فأكسبها تنوعاً وحياة وحركة، ومن هذه الصور وصفه للجبال والتي تدل في كلام العرب على الشموخ والعزة والإباء، ولذلك فقد وصفها عدي بالثبات وصعوبة المراقي فلا تغيرها عوامل الطبيعة، ولا ظواهرها من برد وحر ورياح وما إلى ذلك، فهي شامخة ثابتة كالأوتاد، ففي لوحة فنية رائعة تضامنت فيها مختلف الظواهر الطبيعية مع الجبال لتخرج لنا صورة مركبة جسد فيها المكان وألبسه ثوباً جميلاً، يقول عدي (٢):

مِن كُلِّ أَبهَمَ يَكسو الثَلجُ ذِروَتَهُ حَتّى فَشا وَبَدا في الصَيفِ عُريانا

صَعبُ الشَواهِقِ مُغبَرٌّ بِناكِبِهِ تَرى بِهِ المُعفَراتِ العُصمَ أَخدانا

بِهِ كُلومُ صَوافيرٍ مُذَكَّرَةٍ تَرُنُّ مِنهُ ضَواحي الصَخرَ إِرنانا

فقد وصف في هذه الأبيات الجبل الذي غطت قمته الثلوج، مستعيراً لفظ (يكسو) للدلالة على التغطية، وكأن الثلج غطى الجبل كله، ثم يذكر الضد لهذه الحالة التي ظهر عليها الجبل في فصل الشتاء حيث إنه يبدو عرياناً في فصل الصيف، وكأنه إنسان يلبس الثياب في الشتاء ويتجرد منها في الصيف، فقابل بين حالتين للجبل (الاكتساء في الصيف، التجرد في الشتاء)، ثم يستطرد في وصف هذا المكان الوعر الصعب الذي لا تألف مراقيه من صعوبته، وهذا المشهد لا يرى إلا من بعيد، ثم يقرب الشاعر عدسته

(١) الديوان، ٢٣٣.

(٢) المصدر السابق، ١٧٢، ١٧٣.

الفنية ليصف لنا آثار التكسير الموجودة في الجبل بفعل المعاول وكأنها آثار جروح في جسد إنسان، وهذه الصورة تصف المكان من قرب، فلا يرى الجرح إلا من قريب، ثم ترى ضواحي الصخر المكشوفة الظاهرة أو الجانبية من هذا الجبل تتطاير وترن.

ومن الأماكن التي أجاد الشاعر في وصف رؤيتها عن بعد ما يراه الركب في الصحراء في أوّل النهار وآخره، يقول عدي [1]:

وَإذا بَـــدا عَلَـــمٌ لَهُـــنَّ كَأَنَّـــهُ فـــي الآلِ [2] حـــينَ بَـــدا ذُؤابَـــةُ عـــائِمِ

فيبدو الجبل حين يظهر للركب من بعيد وكأنه إنسان عائم في بحر عليه ذؤابة تتحرك بحركته فتعلو وتنخفض تبعاً لحركة العوم، وهنا استطاع الشاعر أن يصف الجبل وصفاً دقيقاً من خلال رؤية الآخر له، ومن المعروف أن السراب يضخم الأشياء ويظهرها في صورة متحركة، وهنا أجاد الشاعر في وصف الحدث بأكمله حين ضمنه وصف الأشخاص والأمكنة البعيدة والزمان.

ووصف المكان عند الشاعر عدي نابع من بيئته التي عاش فيها، فمن روائع وصفه للمكان ومن يسير فيه تشبيهه للناقة الشديدة الغليظة بنوع من السفن يسمى (قرقور)، حيث يقول [3]:

نِعْـــمَ قُرْقُـــوْرُ المَـــرَوْرَاتِ إذَا غَـــرِقَ الحِـــزّانُ[4] فـــي آلِ الـــسَّرَابِ

فقد شبه الشاعر الناقة القوية الغليظة وهي تجوب الصحراء تتجول بين الديار، والأودية بالسفينة العظيمة التي تسير في البحر، والذي ساعده في تركيب هذه الصورة البيانية هي صورة المكان حين يكسوه الآل فيشبه البحر الكبير، فتهبط الناقة في الأودية المنخفضة المغطاة بالآل والسراب وكأنها سفينة عظيمة تحركها الأمواج فتتمايل في اتجاهات مختلفة، وهذه الصورة تعكس أيضاً بُعد المكان؛ حيث إن السراب لا يرى إلا من بعيد وكلما اقتربت من هذه المكان تراه قفراً لا ماء فيه، فقد استطاع الشاعر أن يرسم لنا لوحة فنية مضيئة للصحراء في وقتٍ مبكرٍ من النهار حين يُرى الآل، فتتحول الصحراء من منظور الرائي إلى ما يشبه البحار، ويصبح المارّ فيها كمن يسبح في الماء في صورة تشبيهية رائعة.

(١) الديوان، ١٢٤.

(٢) الآلُ: شبه الماء الذي تراه في أوّل النهار وآخره كأنّه يرفع الشخوص، وهو السراب، ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، (١٦٢٧/٤).

(٣) الديوان، ٤٦.

(٤) الحَزِيزُ: المكان الغليظ لمنقد، والجمع حزان، لصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٣/ ٨٧٤).

المطلب الثالث: بين الحركة والجمود:

تنوعت الصورة المكانية في ديوان الشاعر عدي بن الرقاع ما بين أماكن جامدة، وهي ما يسمى بالطبيعة الصامتة أو الساكنة، وأماكن مملؤة بالحركة والحيوية والنشاط، ومن هذه الصور ما ذكره في وصف نقيعة ماء تضامنت معها الرياح لتخرج لنا أعذب شراب، حيث يقول(١):

نَقيعَةَ ماءٍ جَلَّت مَتنَهُ رِياحٌ شَآمِيَةٌ حَرجَفُ

بِأَبطَحَ وَرَّعَها أَن تَغورَ مُنعَرِجَ الكَيحِ فَالصَفصَفُ

صور الشاعر المكان في صورة حركية تناغمت فيها الطبيعة لتشكل لنا لوحة حركية بنظام بديع، حيث تهب الرياح في هذا المكان فوق سطح الماء فتزيل ما علق به من أتربة وشوائب، فيهبط هذا الماء إلى بطن الوادي عذباً نقياً، مستقراً في هذه الأرض سائغاً للشاربين، وهنا تتجلى موهبة الشاعر في تركيب هذه الصورة المتحركة ووصفها وصفاً دقيقاً. ويستمر أيضاً في نقل مشاعره وانفعالاته أثناء رسمه لهذه اللوحة الفنية حتى يضفي على المكان الحركة والنشاط فيظل مفعماً بالحيوية.

وفي موضع آخر يصف فيه السحاب وتلاعب الرياح به يميناً ويساراً حتى إذا استقر في مكان ما نزل منه الماء المنهمر، فتحولت الأرض المجدبة إلى بحر لجيٍّ، يقول (٢):

لَجِبُ السَحابِ إِذا أَلَمَّ بِبَلدَةٍ لَم تَسقِها الأَمطارُ مُذ زَمَنٍ بَكى

وَيَمُجُّ ريقَتَهُ بِكُلِّ تَنوفَةٍ سَحَّ المَزادُ إِذا تَبَعَّجَ وَانفَرى

جَرَتِ الجَنوبُ بِهِ فَمالَ مُياسِراً حَتّى إِذا بَلَغَ الفَوارِعَ مِن سَوى

وَأَصابَ قُلَّةَ غَربَ بَعَجَت بِهِ ريحٌ شَآمِيَةٌ فَيامَنَ وَانتَحى

فَانصَبَ في الأَوداهِ يَلمَعُ بَرقُهُ طَوراً تَبَيَّنُهُ وَطَوراً لا يَرى

يَذَرُ المَكانَ المُطمَئِنَّ كَأَنَّهُ بَحرٌ تَجاوَبَ في جَوانِبِهِ الصدى

في هذه الأبيات صور الشاعر السحاب إذا ظهر في سماء بلدة مجدبة تتوق إلى قطراته الندية، ثم تلاعبت بها ريح الجنوب فساقتها إلى جهة اليسار؛ لتبلغ (الفوارع)(٣)

(١) الديوان ٢١٠.

(٢) المصدر السابق، ١٦٦، ١٦٧.

(٣) المصدر نفسه، ١٦٦، ١٦٧، والفوارع: تلاع مشرفات المسايل، جمع فارعة. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ)، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، د.ت، (٢١/ ٤٨٥)

و(سوى)، وهما موضعان، ثم أصاب قمة (جبل غرب) واصطدمت به ريح شآمية شديدة الهبوب فرجع ناحية اليمين، ثم أخذ الماء في السقوط بكثافة، مع لمعان البرق في الأفق، فيتحول المكان القفر المجدب إلى بحر تضرب جوانبه الأمواج، وهذه الصورة التي تضمنت مظاهر الطبيعة المتحركة، تدل على ثقافة الشاعر وتفاعله مع الأحداث، فقد استطاع أن يصورها تصويراً بارعاً اعتمد على دقة الملاحظة وقوة الخيال.

كما استطاع الشاعر أيضاً رسم صورة حركية للجبال الرواسخ عن طريق الرؤية البصرية حيث يقول [1]:

وَإِذا بَـــدا عَلَـــمٌ لَهُـــنَّ كَأَنَّـــهُ فـــي الآلِ[2] حـــينَ بَـــدا ذُؤابَـــةُ عـــائِمِ

أي قد غطَّى الآلُ الجبلَ، فإنّما يظهرُ رأسه، كما يبدو رأسُ السَّابح، فالشاعر هنا يصور لنا الجبل وكأنه رجل يلبس عمامة يسبح في الماء في لوحة حركية رائعة، فالجبل حين يكسوه (الآل) الأبيض تبدو قمته وكأنها رأس إنسان يلبس عمامة بيضاء، وللسراب دور كبير في تضخيم صورة هذا الجبل الذي يسبح في السراب، فظهرت هذه اللوحة الفنية التي رسمها الشاعر لهذا المكان في صورة متحركة، احتوت على عناصر متعددة ومكونة لها، فهذه الصورة الحركية عبارة عن رؤية بصرية خادعة تكونت بسبب بعد الجسم المرئي عن العين، مع وجود عوامل مساعدة لهذه الخدعة البصرية، إلا أن الشاعر قد أجاد في تشخيص هذه المرئيات عن طريق تحديد ملامح هذه الصورة المكانية بكل تفاصيلها ومكوناتها.

وفي موضع آخر تملؤه الحركة يربط فيه بين المكان ومن يعيش فيه، يقول [3]:

وَداوِيَـــةٍ يُحـــارُ الرَكـــبُ فيهـــا كَـــأَنَّ عَلـــى مَخارِمِهـــا جِـــلالا

فقد صور عدي هذا الطائر الحائر، الذي ضل طريقه فتاه في هذه الصحراء الواسعة، وهنا جمع الشاعر بين اتساع المكان وحركة هذا الطائر الحائر، حيث إن حركة التائه غالباً ما تكون سريعة لأنه يطلب النجاة، وقد استخدم الشاعر هذه الحالة الشعورية عند الطائر ليدلل بها على اتساع المكان.

ومما لا شك فيه أن الشاعر عدي بن الرقاع كسابقيه من شعراء العصر الجاهلي كانوا يتنقلون في مقدماتهم التقليدية بين وصف الأطلال إلى وصف الظعائن؛ لما تثيره

(١) الديوان ١٢٤.

(٢) الآلُ: شبه الماء الذي تراه في أوّل النهار وآخره كأنّه يرفع الشخوص، وهو السراب، ينظر: الصحاح، (١٦٢٧/٤)، ويُنْظر: كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (المتوفى: ٣٧٧هـ)، تحقيق وشرح: الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨ م، (ص: ٤٨٠).

(٣) الديوان ١١١.

هذه الظعائن من ذكريات وتدفق للمشاعر، ومعاودة الألفة لها من خلال الأماكن التي تمر فيها وتحتضنها، مع الإشارة إلى حالته النفسية وبكائه وقت رحيلها، يقول [١]:

وَلا جَعَلَــنَ مَحمَــلَ ذي الــسِلاحِ مَجَنَّــهُ رَعَــنَ اليَتيمَــةِ وَافتَرَشــنَ لِواهــا

أَصــعَدنَ فــي وادي أُثَيــدَةَ[٢] بَعــدَما عَــسَفَ الخَميلَــةَ وَاحــزَأَلَّ صَــواها

قُرَيَّــةٌ حَبَــلَ المُقــيظُ وَأَهلُهــا بِحَــشا مَــآبٍ[٣] تُــرى قُــصورُ فَراهــا

وَاحتَــلَّ أَهلُــكَ ذا القتــودِ وَغُرَّبــاً فَالصَحــصَحانَ[٤] فَــأَينَ مِنــكَ نَواهــا

في هذه الأبيات استطاع الشاعر أن يرسم لنا مشاعره قبل أن يصف لنا حركة الظعن وتنقله بين الجبال والأودية، فكان الغرض من وصف الرحلة والراحلة هو الحنين إلى المكان الذي كانت تسكن فيه هذه المحبوبة المهاجرة، فتحول المكان برحيلها إلى الجفاء والجمود، ونلحظ كذلك التذبذب والحيرة في حركة البعير كما نلمحه في فؤاد الشاعر الحزين، فجاء وصف الظعن بكاء وشوقاً للأطلال، لاسيما وقد مرت الرحلة بأماكن متعددة ربما كان يصفها الشاعر من واقع خياله، لمعرفته الجيدة بهذه الأمكنة.

وفي صورة أخرى يصف فيها المكان الموحش الصامت، ويبكي فيها ديار محبوبته التي تحولت من الحركة إلى الجمود، ومن النشاط إلى السكون، فبعد أن كانت عامرة بساكنيها أصبحت مقفرة لا أنيس فيها، يقول [٥]:

أَتَعــرِفُ الــدارَ أَم لا تَعــرِفُ الطَلَــلا بَلــى فَهيجَــتِ الأَحــزانَ وَالــوَجَلا

فقد هجرها الأحباب والأصحاب، وهو يتساءل في حزن عميق ماذا حدث لهذه الديار؟ وأين ساكنيها؟ ولماذا أقفرت؟ وتركها أهلها، فتحولت من الحركة إلى الجمود، وهو ما أثار حفيظته وحرك الأحزان في قلبه.

ثم يعيد ذكر هذه الصورة الصامتة للأطلال في موضع آخر، حيث يقول[٦]:

أَلِمــم عَلــى طَلَــلٍ عَفــا مُتَقــادِمِ بَــينَ الــذُؤَيبِ وَبَــينَ غَيــبِ النــاعِمِ[٧]

---

(١) الديوان ص ٩٩، ١٠٠.

(٢) أُثَيْدَة: بلفظ التصغير: موضع في بلاد قضاعة بالشام ويروى بالتاء المثناة من فوقها (معجم البلدان ٩٣/١).

(٣) مَأب: هي مدينة في طرف الشام من نواحي البلقاء (معجم البلدان ٣١/٥).

(٤)الصَحصحان: واد في طريق الشام من المدينة، انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (المتوفى: ٤٨٧هـ)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ هـ (٣/ ٨٢٥-٨٢٦)، ومعجم البلدان (٣/ ٣٩٤)، ويُنظر: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (المتوفى: ٧٣٩هـ)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ(٨٣٣/٢) ، وشمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميرى اليمنى (المتوفى: ٥٧٣هـ)، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ – ١٩٩٩ م، (٣٦٣٧/٦)، ولسان العرب، (٣٧٧/١٥).

(٥) الديوان ص ٧٣.

(٦) المصدر السابق، ٩٧.

(٧) ناعِمٌ: حِصْنٌ من حُصُون خَيْبر عنْده قُتِلَ محمودُ بنُ مسْلَمة أَلْقوا عليه رحى فقَتَلُوه. يُنْظر: تاج العروس من جواهر القاموس – ط الفكر (١٧/ ٧٠٤)، الذُّؤيب: ماء بنجد لبني دهمان بن نصر بن معاوية. يُنْظر: معجم البلدان (٣/ ٩)، ويُنْظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، (٢٤٠/٤).

بِمَجَـــرٍّ أَهِيـــرَةِ الكِنـــاسِ تَلَفَّعَـــت بَعـــدي بِمُنكَـــرٍ تُربِهـــا المُتَـــراكِمِ

حيث تنكرت هذه الديار فلم يعرفها، ولم يبق منها سوى رسومها الدارسة الصامتة وملامحها البالية المتهالكة، وهو ما يثير في نفسه الشوق إلى محبوبته، لذلك نراه دائم التذكر لها ولديارها، فالأطلال دائماً تذكره بساكنيها، فيجمع في خياله بين الحركة سابقاً والجمود والسكون الحالي، فيزداد حزنه، ويتعمق جرحه، فالمكان أصبح خالياً لا حياة فيه، وهنا يلجأ الشاعر إلى تصوير هذا المكان الصامت؛ ليبكيه.

ونشير إلى رصد عدي لحركة السيول التي فاضت من الأودية محاولة الصعود إلى الأعلى، لكن أعاقها ما شرف من الأرض، فانحرفت من الروابي واتجهت نحو الأبطح ملبية دعوتها كي تحل بها وبأوديتها التي حفل ملتقاها بماء آسن، وحصيّ راسب مستمسك بالأرض، بيد بخيل، حتى أن الفأس عجزت عن النيل منه، يعلوهما ماء صافٍ تحفه حجارة نقية، يقول عدي[1]:

يَكـــادُ يَطلُـــعُ صَـــعداً ثُـــمَّ يغلِبُـــهُ غِـــرُّ الظَـــواهِرِ فَـــالوادي بِـــهِ شَـــرِقُ

إذا تَحَـــرَّفَ مِـــن بَـــرواءَ مُعرِضَـــةٍ دَعـــاهُ أَبطَـــحُ ذو حَـــرفَينِ مُنفَهِـــقُ

عـــودٌ لَـــهُ شُـــعبٌ يُـــدعَينَ أَودِيَـــةً بِمُلتَقـــاهُنَّ مِنـــهُ الـــصَفوَ وَالرَتَـــقُ

ويصور الشاعر عدي بن الرقاع العاملي حركة الأم التي تسعى جاهدة كي تلبي احتياجات صغيرها الذي يعجز عن إعالة نفسه، فهي ترويه من ماء حوصلتها بمفازة لا ماء فيها، وتجمع له ما يستطيع هضمه من زبَّادٍ وزهور متعددة الألوان، وتضمه إلى صدرها، وتحيطه بجناحيها مقدمة له الغذاء الروحي برأفة وحنان، يقول الشاعر[2]:

تـــروي لأزغـــبَ صـــيفيٍّ مهلكـــةٍ إذا تَكَمَّـــشَ أولاد القطـــا خَـــذلا

تنـــوش مـــن صـــوة الأنهـــار يطعمـــه مـــن التهاويـــل والزبـــاد مـــا أكـــلا

تَـــضُمُّهُ لجَنَاحَيْهَـــا وجُؤجُؤُهَـــا ضـــمَّ الفَتَـــاةِ الـــصَّبيَّ المُغْيِـــلَ الـــصَغِلا

تَـــسْتَوْرِدُ الـــسِرَّ أحيانـــاً إذا ظَمِئَـــتْ والـــضَّحْلَ أســـفل مـــن جرزاتـــه الغَلَـــلا

(١) الديوان ١٤٨-١٤٩.

(٢) الديوان ٧٩.

المبحث الثاني: الأبعاد المعنوية.

المطلب الأول: بين الحنين والنفور.

المطلب الثاني: بين الألفة والوحشة.

المطلب الأول: بين الحنين والنفور:

إن التعلق بالمكان يُعد ظاهرة نفسية واجتماعية، فالمكان الأول يحمل حميمية لا حدود لها، والتوحد معه حتمية نفسية لا يمكن تغيرها مهما حدث، فقد حمل هذا المكان الإنسان منذ طفولته، وتبادل معه العواطف والمحبة والشوق والحنين، وعلى الرغم مما يلحق بعض الأمكنة من تغير وضياع لملامحها إلا أنها لا تنسى، ولا يمكن للإنسان أن يمل ذكرها، أو يقل حبه لها لأنها مرتبطة بالأحداث التي وقعت فيها وتركت آثاراً لها في القلب قبل المكان. (١)

وإن تشكيل المكان في الشعر يُعد من أهم العناصر الفنية، فهو الفضاء الواسع الذي تنبثق عنه العديد من الإيماءات والرموز التي تسمح للشاعر أن يدخل إلى عالمه ويسبح بخياله، فيصبح المكان انعكاساً للحالة الشعورية من حزن وفرح، وحنين ونفور، وألفة ووحشة، فالشاعر يستدعي المكان ويوظفه بطريقة إبداعية تُظهر ما فيه من صفات معنوية ودلالاتها التي تتناسب مع العمل الفني، وليس المقصود هنا الأوصاف الحسية الملموسة إنما يقصد في توظيفه للمكان ارتباطه به معنوياً من خلال ما يشعر به تجاه هذه الأماكن بعينها. (٢)

ولقد تنوعت انطباعات الشعراء حول الأمكنة في تجاربهم الشعرية حسب المكان ودلالته النفسية عند الشاعر، فقد يكون المكان شاهداً على الإنسان وما مر به من ذكريات عاطفية جميلة، أو تجارب حياتية صعبة، أو ذكريات حياتية في الماضي، فالمكان والإنسان متلازمان، ونلحظ أن عدي بن الرقاع أفرد للأطلال في شعرة دلالات خاصة تعكس حنينه لهذه الأمكنة ويزيد الحنين والحسرة لهذه البيوت التي تعرضت للتخريب بفعل الزمن وعجلة التقادم، فهي موطن الطفولة ومهد الأمومة، يقول عدي(٣):

أَلمِم عَلى طَلَلٍ عَفا مُتَقادِمِ ... بَينَ الذُؤَيبِ وَبَينَ غَيبِ النـاعِمِ

بِمَجَرِّ أَهبِرَةِ الكِناسِ تَلَفَّعَت ... بَعدي بِمُنكَرِ تُربِها المُتَراكِمِ

لِتَزورَ أَرمِدَةً كَأَنَّ مُتونَها ... في الأَرضِ عَن حِجَجٍ مُتونُ حَمائِمِ

(١) انظر: قضايا حول الشاعر: قضية المكانية في الشعر العربي، د/ عبده بدوي، ذات السلاسل، الكويت، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م، (ص٦٣).

(٢) انظر: قضايا حول الشاعر: قضية المكانية في الشعر العربي، (ص٦٥).

(٣) الديوان، ٩٧.

فَظَلِلتُ مُكتَئِباً كَأَنَّ تَذَكُّري مِمّا عَرِفتُ بِهِا تَوهُمُ حالِمِ

فالشاعر هنا لا يصف الإطار الخارجي للمكان فحسب، إنما أراد بهذا الوصف لملامح المكان أن يشير إلى شدة الشوق والحنين لهذا المكان الذي يحمل له منزلة عظيمة في قلبه أصابه ما أصابه من عوامل جغرافية أدت إلى تغير في الملامح الرئيسة وفقد معالمه القديمة، مما كان له عظيم الأثر في إثارة أحاسيس الشاعر نحو هذه الأمكنة، وصاحب هذا التوظيف للمكان دلالات متعلقة بالحالة النفسية للشاعر، فنراه مكتئباً حزيناً كثير الأسى والبكاء، فقد شبه الشاعر ذلك الطلل الذي تراكم عليه التراب بإنسان قد التحف وتغطى بغطاء فلا يعرف، كما شبه أكوام الرماد التي يخالط لون الأسود غبرة بظهور الحمائم.

كما يعكس أيضاً وصف المكان بهذه الكيفية طبيعة الشخصية وملامحها، وحالتها المزاجية والنفسية، عن طريق توظيف المكان للدلالة على ما تعانيه الذات الشاعرة من بُعد واغتراب عن المكان المحبب لها والقريب من ذاتها.

والأمكنة المألوفة كالديار والمنازل والبيوت في حياة عدي بن الرقاع أثارت في نفسه الحنين والشوق إلى الماضي بذكرياته مما يتماشى مع تجربته الشعرية وحبه لبيئته؛ لأن الإنسان له ارتباط وثيق بالمكان الذي عاش فيه أو تربى فيه أو كانت له فيه أحداث جميلة، فتراه يتعلق بهذا المكان تعلقاً وجدانياً ونفسياً وفكرياً مما يخلق لكل شاعر حالة نفسية يعيشها نحو هذا المكان، ويختلج في صدره مجموعة أحاسيس ومشاعر يبثها تجاه هذا المكان.

وعن هذه الديار التي تعاقبت عليها الأيام برياحها العاتية حتى ضاعت ملامحها وزالت فلم يعرفها، يقول عدي [1]:

مِن دِيارٍ غَشيتُها ذُكرَةً ما بَينَ قاراتِ ضاحِكٍ فَالهَزيمِ

نَسَجَت ظَهرَها الرَياحاتُ حَتّى بَرِئَ القاعُ مِن جَميعِ الرُسومِ

مِثلُ ما بُرِّئَ الحيرَةَ جُروحَ ال جِلدِ حَتّى يُصَحَّ بَعدَ كُلومِ

فقد شبه الشاعر الديار في حالتها هذه بالجلد الذي كان مجروحًا مكلومًا ثم برئ بعد مرور الوقت وزال أثر الجرح وعاد الجلد سليمًا فالدار درست معالمها من تعاقب الريح عليها وصارت كأنها غير مسكونة من قبل، وهو ما يدل على تغير الصورة بعد مرور الوقت.

(١) الديوان، ١٣٧.

وقد انتهج عدي بن الرقاع منهج القدماء في وصفه للديار والطلل بصور كثيرة، فلم يبق من هذه الديار أي أثر، إذا انمحت معالمها، ودرست آثارها، وتحول حنينه إليها إلى نفور من خرابها فقد أصبحت مجهولة بعد أن كانت معلومة، وصارت إلى خراب بعد أن كانت مأهولة بمن يحب ، لتتحول دلالة المكان النفسية عند الشاعر من الألفة والحنين إلى الوحشة والنفور، مما يثبت أهمية المكان في تشكيل الحالة النفسية لدى الذات الشاعرة وتغيرها، فقد أَفَلَت آمال الشاعر وطموحاته في أن يرى هذه الأمكنة على حالتها القديمة مرة أخرى بعد أن غيرتها عوامل الزمن.

وقد رسم عدي بن الرقاع في قصيدة أخرى صورة لهذه الديار التي أثرت فيها العوامل الطبيعية بالسلب حيث الخراب والدمار، فأزالت معالمها، وطمست ملامحها، فلم يعرفها الشاعر، يقول عدي[1]:

عَرَفَ الدِيارَ تَوَهُّماً فَاعتادَها مِن بَعدِ ما شَمِلَ البِلى أَبلادَها

وَتَنَكَّرَت كُلَّ التَنَكُّرِ بَعدَنا وَالأَرضُ تَعرِفُ تَلعَها وَجَمادَها

فلم يستطع الشاعر التعرف على المكان إلا بعد معاودة النظر إليه عدة مرات، مما يدل على زوال معالمه الرئيسة، فقد تعرض للطمس والامحاء والتغير، إلا أن هذا الطلل على الرغم من وحشته الحالية يثير الشوق والحنين عند الشاعر إلى صاحبته التي كان يذوب عشقاً في هواها، وصورتها لا تفارق خياله، لذلك فهو دائم الحنين إلى مثل هذه المواضع التي شهدت على حبه، فالأطلال دائماً تذكره بساكنيها، ولكن كلما أراد الشاعر أن يسترجع ذكرياته تجاه هذه الأمكنة، تتنكر له بسبب ضياع معالمها وطمسها فيزداد حنينه إليها وحزنه على فقدها، فقد صور الدار بأثافيها تصويراً رائعاً لم يسبقه إليه أحد.

ويشعر عدي بالانتماء إلى هذه المواضع فلا يستطيع بأي حال من الأحوال التخلي أو الابتعاد عنها، ومما لا شك فيه أن إصراره على ذكر هذه الأماكن وبكائها إنما هو من شدة تعلقه بها، وحبه إياها بصفته الوطن الذي ينتمي إليه، وهذا يباعد بين الشعر وتعداد الأماكن لمجرد التعداد فقط[2]؛ لأنها تعد ملكاً له لا يجوز تركه عرضة للخراب والوحشة، فتسكنه الحيوانات الشريدة بدلاً من أهله، واستدعاء الشاعر هنا لهذه الأمكنة جاء من قبيل الدفاع عنها والتأكيد على أنه دائم الحنين إليها ولن يفرط فيها، فهي جزء لا يتجزأ من ذاته، وفيها صورة لا تمحى أبداً من ذاكرته، وستظل راسخة مثل الجبال.

(١) الديوان، ٨٢، ٨٣.

(٢) شاعر السمو زهير بن أبي سلمى – الصورة الفنية في شعره، عبد القادر الرباعي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، الأردن ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م، ص ٤٦.

وفي موضع آخر شبه فيه الطلل بعنوان الكتاب، يقول [١]:

لِمَـــنِ الـــدارُ كَعُنـــوانِ الكِتـــابِ هاجِـــتِ الـــشَوقَ وَعَيَّـــت بِـــالجَوابِ

فقد شبه الشاعر الطلل بعنوان الكتاب، فهو أسرع في الطمس والإمحاء واختفاء المعالم من الكتاب كله، وقد أجاد الشاعر في هذا التشبيه فهو أدق في المعنى، لذلك قال شارح الديوان "وخص به العنوان لأنه أسرع درساً من داخله" [٢]، وفي هذا البيت دلالة واضحة على شوقه وحنينه لما كان عليه المكان قبل أن تختفي معالمه.

وليس وقوف عدي على الأطلال فراغاً أو تزجية للفراغ، إنما هي عبرة تؤخذ، فالأطلال كتاب مفتوح يقرأ فيه تاريخ أصحابه، ويسترجع ماضيهم وذكرياتهم، ولذلك شبهه عدي بالكتاب وبعنوانه لما يحتوي عليه من مضمون يتشابه مع مضمون الكتاب.

المطلب الثاني: بين الألفة والوحشة:

لا شك أن جميع الأمكنة تُعد مألوفة لدى الشعراء في أوقات التناغم والرضا، حتى إذا ما أصابه منها مكروهاً تحول هذا الرضا وهذه الألفة إلى وحشة ونفور نحو هذه الأمكنة، ثم ينعكس كل هذا على تجربته الشعرية تبعاً للحالة النفسية التي يعيشها الشاعر في حينها، فنجد الشاعر عدي بن الرقاع يصف لنا صفاء الماء وعذوبته وما يحيط به من جبال ليعكس لنا ما بداخله من ألفة تجاه هذا المنظر الرائع وما يضفيه على النفس من راحة وسكينة، يقول عدي [٣]:

نَقيعَـــةَ مـــاءٍ جَلَـــت مَتنَـــهُ رِيـــاحٌ شَـــآمِيَةٌ حَرجَـــفُ

بِـــأَبطَحَ وَرَّعَهـــا أَن تَغـــور مُنعَـــرِجَ الكَـــيحِ فَالصَفـــصَفُ

فقد صور لنا الشاعر صفاء الماء وعذوبته في منقعه حيث إن الرياح الشامية شديدة الهبوب تمر من فوق سطح الماء فتزيل القذى والشوائب ليصير صافياً عذباً خالياً من الشوائب والأتربة، كما أن هذه المياه مستقرة في بطن الوادي يحجزها جانب الجبل ويحفظها أن تغور في باطن الأرض، ولأن الأرض الصفصف مستوية لا تشققات فيها ولا تفاوت فيظل الماء على عذوبته وصفائه، ولهذا المشهد دلالة أخرى أرادها الشاعر من وصفه الدقيق حيث إن ارتباط الوادي بالماء يدل على الخير والنماء والعطاء، وهو ما أراده الشاعر في تركيب هذه الصورة الرائعة ليشبه بها ممدوحه، أما الوادي بدون ماء فلا خير فيه إنما يدل على القحط والقفر والوحشة.

(١) الديوان، ٤١.
(٢) المصدر نفسه، ٤١.
(٣) المصدر السابق، ٢١٠.

وتمثل الأرض بالنسبة للشاعر الارتباط الأبدي، فهي التي تحتضنه إذا غاب الأحباب، يتنقل فيها بكل ثقة وأمان، فهي المكان الأول والأخير للشاعر وقت حزنه ووقت فرحه، تضمد جراحة وتشاركه أفراحه، فهي المكان الوحيد الذي يتوافق مع مكنوناته النفسية، وهذه الطبيعة الفاتنة كانت مبعثاً في إيقاظ خياله البشري، ودفعه بقوة إلى استخدام إبداعه الفني في نظم أشعار حافلة بوصف مظاهر الطبيعة، يقول عدي [1]:

كُلَّ وَسْمِيَّةٍ[2] تَحَيَّرَ فيها مِن سُيولِ الرَبيعِ وَالصَيفِ ماءُ

فَكَساها مُنَوَّراً رَشَحَتهُ فَتَراتُ الشِتاءِ وَالأَنواءُ

رَهِلٌ زَمَخَرٌ إِذا الشَمسُ ذَرَت خَضِلَت في ظِلالِهِ الأَنداءُ

يَتَغَنّى بِها عَلى نَغِمٍ بالٍ في ضَواحي رِياضِها المكّاءُ

فالشاعر يتغنى بجمال هذا المكان، حيث الطبيعة بسحرها وتدفق المياه فتتزين الأرض بالخصب والعطاء، وتمد الرياض بالخير والنماء، وتحلق الطيور في السماء معلنة عن جمال الربيع في ضواحي رياضها، في لوحة فنية رائعة تزخرفها قطرات الندى التي ظهرت بطلوع الشمس، فقد أجاد الشاعر في وصف المكان بكل عناصره في دلالة واضحة منه على حبه لهذا المكان وشدة إحساسه به، وتآلفه وتعانقه مع الطبيعة الساحرة.

والأمكنة المعادية أو المهجورة والتي يشعر فيها الإنسان بالرهبة والاغتراب والبؤس ويتغلب عليه شعور التشاؤم فيها، فهذه الأمكنة لها بعد نفسي ودلالات نفسية لدى الشاعر تجعله دائما يحاول الهروب منها ومن وحشتها، وها هو ذا الشاعر عدي بن الرقاع يتحدث عن الأرض وإهلاكها لأهلها، يقول [3] :

وَالمَرءُ لَيسَ وَإِن طالَت سَلامَتُهُ يَدري الَّذي هُوَ لاقٍ قَبلَ أَن يَقَعا

وَالأَرضُ غائِلَةٌ لِلناسِ مُهلِكَةٌ فَما تَرى أَحَداً مِن أَهلِها اِمتَنَعا

فقد اتسم حديث الشاعر عن الأرض بالوحشة والتشاؤم، حيث وصفها بأنها مهلكة وغائلة لأهلها، فمهما طالت سلامة المرء فيها فلا يأمن عواقب أمره، فديدن الأرض هو الإهلاك الذي لم يسلم منه أحد، فالصورة التي صورها الشاعر للأرض تحمل في طياتها الكثير من الدلالات منها الوحشة، والنفور، وعدم الرضا، واليأس، والدمار، وقد استخدم

(١) المصدر السابق، ١٥٢.

(٢) الوَسْمِيُّ: مطر الربيع الأوّل، لأنّه يسِمُ الأرض بالنبات، نُسِبَ إلى الوَسْم، والأرض مَوْسومَةٌ ، ينظر: الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٢٠٥١/٥).

(٣) الديوان، ٢١٧.

الشاعر الألفاظ ذات الدلالات الواضحة التي ساعدت في إبراز المعنى المراد مثل: (غائِلَةٌ، مُهلِكَةٌ، لاقٍ، يَقَعا، امتَنَعا)، فهي ألفاظ دالة على الهلاك والفناء، وفيه دلالة أيضاً على الحالة النفسية عند الشاعر من خلال نظرته التشاؤمية، وما يشعر به من وحشة تجاه الأرض.

وكما أن الخوف والوحشة من الأماكن الضيقة أكثر من اللازم موجود، فإن انفساح المكان أكثر مما يجب يشعرنا بالاختناق أكثر من المكان الأضيق مما نحتاج [1]، فيشعر المار فيه باللامحدودية، وكأنه في سجن واسع، وعلى الرغم من ركوضه فيه إلا أنه لا يستطيع الخروج منه، لذا فقد جاء ذكر الصحراء عند بعض الشعراء للدلالة على الخوف والوحشة من اتساعها وسكونها المميت، يقول عدي [2]:

وَنَحْنُ بأرضٍ قَلَّ مـا يَجْـشَمُ الـسُّرى بهـا العربيـات الحـسان الحرائـر

كثيرٌ بهـا الأَعْـدَاءُ، يَحْـصَرُ دُوْنَهـا بريـد الأميـر المـستحث المثـابرُ

فقد كنى عن الخوف من مخاطرها نظراً لاتساعها بأن العربيات الحسان الحرائر لا يلقى بهن في مجاهل هذه الصحراء التي يعجز عن قطعها بريد الأمير والمعروف عنه المثابرة والنشاط، فكيف بهؤلاء الحرائر، فجاءت الأبيات كناية عن اتساع الصحراء ووعورتها، وعدم معرفة طرقها وكيف يأتونها للخروج منها؛ لذا فقد سميت طرقها مجاهل وسميت الصحراء بالمفازة من باب التفاؤل بالنجاة منها، وإنما هي مهلكة.

فالوصف يعتمد إلى أبعد حد على قوة الإدراك، وسعة الخيال، ودقة الذوق، فهو ظل البيئة التي يعيش فيها الأدباء، وقد كان عدي قوي الملاحظة في وصفه للأمكنة بكل تفاصيلها.

والشاعر يوظف المكان توظيفاً دلالياً ليشير به إلى بواطن أحاسيسه، فتظهر معاناته النفسية وحنينه إلى هذه الأمكنة المرتبط بها عاطفياً وجغرافياً، أو نفوره منها لوحشتها وسوء ذكراها، وهنا يتجلى مقدار الحنين إلى الأوطان، فقد رمق الشعراء جميعًا سماء هذا المعنى فقال أبو تمام [3]:

نَقِّلْ فُؤَادَكَ حَيْثُ شِئْتَ مِنَ الْهَوَى مَا الْحُبُّ إِلَّا لِلْحَبِيبِ الأَوَّلِ

كَمْ مَنْزِلٍ فِي الأَرْضِ يَأْلَفُهُ الْفَتَى وَحَنِينُهُ أَبَدًا لأوَّلِ مَنْزِلِ

(١) ينظر: جماليات المكان، صـ ١٩٨.
(٢) الديوان، ١٩٧.
(٣) ديوان أبي تمام، (٤/ ٢٥٣).

فالحنين والاشتياق والألفة بين الشاعر والمكان لا تكون إلا لمكان قد ارتبط به عاطفياً سواء أكان هذا المكان ولد فيه أو جمعه بمن يحب في يوم من الأيام، وهو ما يكتشفه الإنسان – غالباً – بعد أن يترك هذا المكان ويعيش في بيئة مختلفة فيعرف فضائل بيئته الأولى ويظهر عليه الشوق والحنين إليه، وبالتالي فإن الدلالات النفسية تجاه المكان تختلف حسب الحالة النفسية للشاعر.

أهم نتائج البحث:

بعد دراسة تحليلية فنية لأوصاف المكان في شعر عدي بن الرّقاع العاملي، توصل البحث إلى عدد من النتائج تتلخص في النقاط التالية:

١- تأثر عدي تأثراً واضحاً بالبيئة التي نشأ وتربى فيها، فقد ولد وترعرع في بيئة الشام حيث جبالها وسهولها وأنهارها، وشاعرنا من بين هؤلاء الشعراء الذين اهتموا بذكر الأماكن في شعرهم فقلما نجد له مقطوعة أو قصيدة تخلو من ذكر هذه المواضع التي مر بها في شبابه وشاهدها فعلقت بذهنه، ومن شدة حبه لها يذكرها في شعره.

٢- إن الأمكنة المفتوحة من وحي الطبيعة جاءت صورها في شعر عدي بن الرقاع كثيرة ومتناثرة، فقد استعان بها في غير موضع؛ لما تحمله في طياتها من راحة نفسية وشعور بالهدوء.

٣- تضمن شعر عدي بن الرقاع الكثير من عناصر الطبيعة والتي ضمها إلى صوره فأكسبها تنوعاً وحياة وحركة، ومن هذه الصور وصفه للجبال التي تدل في كلام العرب على الشموخ والعزة والإباء، ولذلك فقد وصفها عدي بالثبات وصعوبة المراقي فلا تغيرها عوامل الطبيعة، فهي شامخة ثابتة كالأوتاد، ففي لوحة فنية رائعة تضامنت فيها مختلف الظواهر الطبيعية مع الجبال لتخرج لنا صورة مركبة جسد فيها المكان وألبسه ثوباً جميلاً.

٤- أظهر البحث أن استخدام الألوان عند عدى بن الرقاع ليس صدفة، بل له ارتباط وثيق ببيئته ونفسيته، فكان لكل لون طابعه الجمالي الذي يدل عليه، لذلك تلحظ في تصويره للطبيعة والأمكنة الخضراء إجادته في استخدام الألوان.

٥- تتعدد الأمكنة في ديوان عدي بن الرقاع وتختلف في الأبعاد والأحجام والأصناف، وتتنوع صورها، فالشاعر لم يكتفِ بالمكان المحسوس، وإنما خلق أمكنة فكرية وذهنية كانت مسرحاً لأحداثه، وقد استطاع الشاعر عبر تقنية الوصف أن يتناول المكان بمظهره الحسي والخيالي، وأن يصوره في صور متعددة؛ ليعكس لنا طبيعة شخصيته في مختلف حالاتها النفسية.

أهم المراجع:

- الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهليين والمخضرمين، للخالديين، تحقيق السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والنشر، ١٩٦٥م.
- الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (المتوفى: ٣٢١ه)، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى،١٤١١ ه-١٩٩١م.
- إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٥م.
- الأعلام، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي (المتوفى: ١٣٩٦ه)، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر – أيار / مايو ٢٠٠٢ م.
- الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب، سعد الملك، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا (المتوفى: ٤٧٥ه)، دار الكتب العلمية – بيروت–لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١ه-١٩٩٠م.
- أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد)، الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي (٣٥٥ – ٤٣٦ ه)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية (عيسى البابي الحلبي وشركاه)، الطبعة الأولى، ١٣٧٣ ه – ١٩٥٤ م.
- أمالي المرتضى، الجمان في تشبيهات القرآن: لابن ناقيا، عبد الله بن الحسين، تحقيق محمود الشيباني، الرياض، ١٩٨٧ م.
- الإنباه على قبائل الرواة، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣ه)، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ه – ١٩٨٥م.
- الانتماء في الشعر الجاهلي، فاروق أحمد سليم، منشورات اتحاد الكتاب، دمشق، ١٩٩٨م.
- الإنسان والمكان، ليث كريم حمد، مجلة ديالى، العراق، ٢٠٠٩م.
- بناء «فضاء المكان» في القصة العربية القصيرة، محمد السيد إسماعيل، دائرة الثقافة والإعلام، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة، ٢٠٠٢م.
- تاج العروس، الزبيدي، أبو الفيض محمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني، المعروف بالمرتضى، تحقيق: عبد الستار فراج وآخرين، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، ١٩٦٥م.
- تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر (المتوفى: ٥٧١ه)، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٥ ه – ١٩٩٥ م.
- جماليات المكان في شعر ذي الرمة، فادىا رضا العويشي، مخطوط رسالة ماجستير، جامعة البعث، سوريا، ٢٠١٠م.

- جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة: غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للنشر، بيروت، لبنان، ط ٢، ١٩٨٤ م.
- جماليات المكان، مجموعة مؤلفين، ترجمة: سيزا قاسم وآخرون، الدار البيضاء ودار قرطبة، لبنان، ط١، ١٩٨٨ م.
- جمهرة اللغة، ابن دريد الأزدي، أبو بكر محمد بن الحسن، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
- جمهرة أنساب العرب، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦ه)، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣/١٩٨٣م.
- ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (المتوفى: ٨٠٨ه)، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨ ه – ١٩٨٨ م.
- ديوان عدي بن الرقاع العاملي، أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب الشيباني، تحقيق: د/ نوري القيسي، ود/ حاتم الضامن، مطبعة المجمع العلمي العراقي ١٤٠٧ه – ١٩٨٧ م.
- الرواية والمكان، ياسين النصير، دار الشؤون الثقافية العامة، العراق، بغداد، د.ت.
- الزمان والمكان في الشعر الجاهلي، باديس فوغالي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، الطبعة الأولى،٢٠٠٨م.
- الزمكانية وبنية الشعر المعاصر – أحمد عبد المعطي حجازي أنموذجا، حنان محمد موسى، جدارا للكتاب العالمي، الأردن، ٢٠٠٦م.
- سير أعلام النبلاء، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨ه)، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥ ه / ١٩٨٥ م.
- شاعر السمو زهير بن أبي سلمى – الصورة الفنية في شعره، عبد القادر الرباعي، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع ، الأردن ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ م.
- شاعرية المكان، د/ جريدي المنصور الثبيتي، شركة دار العلم للطباعة والنشر، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٢ه–١٩٩٢م.
- شرح مقامات الحريري، أبو عباس أحمد بن عبد المؤمن بن موسى القَيْسي الشُّريشي (المتوفى: ٦١٩ ه)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٦ م – ١٤٢٧ ه.
- الشعر والشعراء، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦ه)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٣ ه.

- شعراء الدعوة الإسلامية، عبد العزيز محمد الزير، ومحمد عبد الله الأطرم، كلية اللغة العربية بالرياض، د.ت.
- شعراء شاميون، خليل مردم بك، تحقيق: عدنان مردم، دار صادر بيروت، د.ت.
- الشعرية، تودروف، ترجمة: شكري المبخوت ورجاء بن سلامة، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٩٠ م.
- شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، نشوان بن سعيد الحميرى اليمني (المتوفى: ٥٧٣ه)، تحقيق: حسين بن عبد الله العمري – مطهر بن علي الإرياني – د يوسف محمد عبد الله، دار الفكر المعاصر (بيروت – لبنان)، دار الفكر (دمشق – سورية)، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ ه – ١٩٩٩ م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، لأحمد بن على القلقشندي، تحقيق: الدكتور / يوسف على طويل، دار الفكر للطباعة والنشر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧ م. ودار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.
- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧ م.
- صفة جزيرة العرب، ابن الحائك، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن داود الشهير بالهمداني (المتوفى: ٣٣٤ه)، مطبعة بريل – ليدن، ١٨٨٤ م.
- طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلّام بن عبيد الله الجمحي بالولاء، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٣٢ه)، تحقيق: محمود محمد شاكر، دار المدني – جدة، د.ت.
- عدي بن الرقاع العاملي – حياته وشعره، تحسين محمد الصلاح، وزارة الثقافة المملكة الأردنية الهاشمية، عمان، ط١، ١٩٩٩م.
- العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨ه)، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ ه.
- الفضاء الروائي، جيرار جنيت وآخرون، ترجمة: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، ٢٠٠٢م.
- القارئ والنص والعلامة، سيزا قاسم، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، د.ط، ٢٠٠٢م.
- قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، محمد علي عبد المعطي، دار المعرفة، الإسكندرية، مصر، د.ت.
- قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، صلاح صلاح، دار شرقيات للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، ١٩٩٧ م.

- قضايا حول الشاعر: قضية المكانية في الشعر العربي، د/ عبده بدوي، ذات السلاسل، الكويت، ١٤٠٦ه- ١٩٨٦م.
- كتاب الأغاني، لأبي الفرج علي بن الحسين الأصفهاني، المتوفى(٣٥٦ه- ٩٧٦م)، تحقيق: د/ إحسان عباس، دار صادر بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٢٩ه -٢٠٠٨م.
- كتاب التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: ٨١٦ه)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٣ه -١٩٨٣م.
- كتاب الشعر أو شرح الأبيات المشكلة الإعراب، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار الفارسيّ الأصل، أبو علي (المتوفى: ٣٧٧ه)، تحقيق وشرح: الدكتور محمود محمد الطناحي، مكتبة الخانجي، القاهرة – مصر، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ ه – ١٩٨٨ م.
- اللباب في تهذيب الأنساب، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن حمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠ه)، دار صادر –بيروت، د.ت.
- لسان العرب، محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١ه)، دار صادر – بيروت، الطبعة الثالثة – ١٤١٤ ه، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، دار المعارف، القاهرة، د.ت.
- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧ه)، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ ه، ١٩٩٤ م.
- مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي، الحنبلي، صفيّ الدين (المتوفى: ٧٣٩ه)، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢ ه.
- مشكلة المكان الفن (المكان والدلالة)، يوري لتمان، ترجمة: سيزا قاسم، مجلة ألف، العدد ٦، ١٩٨٦ م.
- مشكلة المكان، يوري لوتمان، ترجمة: سيزا قاسم، عيون المقالات الدار البيضاء، المغرب، ط٢، ١٩٨٨م.
- معجم البلدان، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦ه)، دار صادر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م.
- معجم الشعراء، للإمام أبي عبيد الله محمد بن عمران المرزباني (المتوفى: ٣٨٤ ه)، بتصحيح وتعليق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، مكتبة القدسي، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الثانية، ١٤٠٢ ه – ١٩٨٢ م.

- معجم العين، الخليل بن أحمد الفراهيدي، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، د.ت.
- معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، الهيئة المصرية العامة، ط٢، ط ١٩٨٩ م.
- معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مكتبة المثنى – بيروت، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.
- معجم شعراء لسان العرب، ياسين الأيوبي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠م.
- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي (المتوفى: ٤٨٧ه)، عالم الكتب، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٣ ه.
- المكان الأليف في شعر الأرجاني، دعاء علي عبد الحسين، مجلة آداب، الجامعة المستنصرية، العراق، ٢٠١٥م.
- الممتع في صنعة الشعر، عبد الكريم النهشلي القيرواني، تحقيق: الدكتور محمد زغلول سلام، أستاذ اللغة العربية وآدابها – كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، منشأة المعارف، الإسكندرية – جمهورية مصر العربية، د.ت.
- المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء وكناهم وألقابهم وأنسابهم وبعض شعرهم، أبو القاسم الحسن بن بشر الآمدي (المتوفى: ٣٧٠ه)، تحقيق: الأستاذ الدكتور ف. كرنكو، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١ ه – ١٩٩١ م.
- نقائص جرير والأخطل، تأليف أبي تمام، حبيب بن أوس الطائي، دار المشرق، بيروت، ١٩٢٢م.
- نهاية الأرب في فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم القرشي التيمي البكري، شهاب الدين النويري (المتوفى: ٧٣٣ه)، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ ه.
- الوافي بالوفيات، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله الصفدي (المتوفى: ٧٦٤ه)، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت، ٢٠٠٠م.
- الوساطة بين المتنبي وخصومه، للقاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.